الفصل الرابع

بيان الموقف الحق -إن شاء الله تعالى- في مواجهة أنواع الغزو الموجهة إلى ديار المسلمين

وأصحاب هذا الموقف هم الذين وفقهم الله ﷻ للفهم الصحيح والقصد الحسن، وجنبهم تلك المواقف السابقة الذكر، فأحسنوا الظن بربهم وتحقيق وعده بالنصر للمؤمنين، فلم تساورهم الوساوس والشكوك، ولم ييأسوا ويصيبهم الإحباط والضعف والاستكانة، وكذلك لم يُهزموا أمام ضغط الواقع وشدة الابتلاء، فيتنازلوا عن أصول دينهم وثوابته، بل ثبتهم الله ﷻ وقبضوا على دينهم كالقابض على الجمر، وكذلك حماهم الله ﷻ من الاستعجال في الأمور قبل أوانها، ووفقهم لفقه الموازنات وفهم مقاصد الشريعة، كذلك برأهم الله من مواقف المنافقين والمرجفين، ومواقف أهل الدنيا الراكنين إليها الذين لا همَّ للدين وأهله في نفوسهم.

والحاصل أن الله ﷻ هداهم لصراطه المستقيم في العلم والعمل صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وامتثلوا قول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]،

وقوله -سبحانه-: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]، وقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨]، وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤١-٤٣].

هذه أوصافهم على الجملة إذ هم الأتقى والأنقى والأقوى، الأتقى فهم المخلصون، والأنقى فهم المتبعون، والأقوى فهم المتوكلون على الله الآخذون بالأسباب، أما على التفصيل فهم الذين تحققت فيهم صفات الناجين من الخسران الواردة في سورة العصر، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، حيث إنهم كملوا أنفسهم بالعلم والإيمان والعمل الصالح، وكملوا غيرهم بالتواصي معهم بالحق واجتماع الكلمة على الدعوة والجهاد والصبر على ذلك، والذي يهمنا هنا هو الحديث عن دور هؤلاء الموفقين في التواصي على الدعوة والجهاد ومدافعة غزو الكفار والمنافقين لبلاد المسلمين عسكرياً وفكرياً وسلوكياً.

وقد تبين لنا في المباحث السابقة ذلك المكر الكبار، والكيد العظيم، والغزو الخطير، الذي يقوم به أعداء الإسلام وإخوانهم من المنافقين في احتلال بلدان المسلمين، ومحاولتهم مسخ هوية المسلمين وعقيدتهم، وفرض أنماط الغرب السلوكية والتغريبية في حياتهم. ومن أجل ذلك

هب هؤلاء المجاهدون للتصدي لهذه الأنواع من الغزو كلاً بما يحسنه ويقدر عليه، هذا بسنانه وحسامه، وذاك بعلمه وبيانه، وآخر بتربيته وتحصينه واحتسابه على المنكرات، ورأوا أن لا خيار لهم في ذلك بعدما سمعوا قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٣٨-٤١].

وهذه الآيات وإن كانت قد نزلت في لوم المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله ﷻ بالسنان، فأحسب أنها عامة في جميع أنواع الجهاد المتعين (الجهاد بالسنان، والجهاد بالبيان، والجهاد بالتربية والدعوة ومحاربة الفساد).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان، والرأي والصناعة، فيجب

بغايـة ما يمكنه)[1]. وعليه فإن التقاعـس والتباطؤ أو التخذيل عن القيام بهـذه الأنواع من الجهاد يكون داخلاً تحت الوعيـد الوارد في هذه الآيات ولا يبعـد أن يكـون أيضاً ممن عناهـم الله ﷻ بقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

فاخـتر يـا عبد الله أي نوع من الجهاد تحسـنه فانفر إليـه، فإنه لا يعذر في هـذه النوازل قاعد، ولو كان عامياً لا يقـرأ ولا يكتب، يقال له: جاهد بتربيتك لأهل بيتك، وتحصينهم من الفساد، وبلغ من تستطيع من الجيران والأقارب، فهذا منك جهاد.

ولقـد أدرك الموفقون من عبـاد الله ﷻ خطورة القعود عن نصرة دين الله ﷻ فنفرت طوائف من هذه الأمة كل بحسبها، وبما تقدر عليه من أنواع الجهـاد في مدافعة الصائل على البلاد والعبـاد والعقائد والأخلاق، فكان منها طائفة تصدت للغزو العسكري بجهاد اليد والسنان، وطائفة تصدت للغـزو الفكري والعقدي بجهـاد العلم والبيان، وطائفـة أخرى تصدت للغزو السلوكي والتغريبي بجهاد التربية والتحصين والاحتساب، وذلك حسب التفصيلات الآتية:

---

(١) «الاختيارات الفقهية» (ص٤٤٧) (نشر دار العاصمة).

المبحث الأول

التصدي للغزو العسكري من الكفار على بلدان المسلمين

ويتم هذا بإعلان فريضة الجهاد باليد والسنان على الغزاة الكافرين، وصدهم عن بلاد المسلمين بكل ممكن، وهذا هو جهاد الدفع الذي تقرر عند أهل العلم في القديم والحديث: أنه **فرض عين** على أهل كل بلد يغزوهم الكفار في عقر دارهم، حيث يجب على كل قادر مكلف في هذه البلدان: أن ينفر لصد العدوان وقتال الكفار المعتدين، حتى يندفع العدو عن أرض المسلمين بالمال والنفس، ويجب على بقية بلدان المسلمين أن ينصروا إخوانهم في بلدانهم المغزوة، بأن يمدوهم بالمال والسلاح والرأي والمشورة والدعاء، وإذا لم يكف المقاتلون في البلد المعتدى عليه في صد العدوان وجب على من يليهم من بلدان المسلمين نصرتهم بالرجال حتى تحصل الكفاية، كما يجب عيناً على من كان من المسلمين ذا خبرة عسكرية في أي فن من فنون القتال، أو ذا خبرة إعلامية وعلمية لم تحصل بها الكفاية عند المجاهدين أن ينفروا لنصرة إخوانهم، وهذا ما قرره أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله: (وإذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة)[1].

---

(١) «الاختيارات الفقهية» (ص٤٤٨).

ويقـول الإمام محمود الآلـوسي رحمه الله في مخطوطة له عن الجهاد وهي تحت الطبع: (فإن كان كذلك بأن هجموا على بلدة من بلاد المسلمين فهو **فرض عين** اتفاقاً من الجمهور وابن المسيب، سـواءً كان المستنفر عدلاً أو فاسقاً، فيجب على جميع أهل تلك البلدة أن ينفروا، وكذا من يقرب منهم إذا لم يكـن بأهلها كفاية، وكذا مـن يقرب ممن يقرب منهم إذا لم يكن بمن يقـرب منهـم، كفاية أو تكاسـلوا أو عصوا، وهكذا حتـى يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً، كذا قال غير واحد من العلماء الأعلام)[1].

وإن مـن عجائب زماننـا، والعجائب جمة أن يقال عن الجهاد في تلك البلدان المحتلة ودفع الكفار عنها أنه قتال فتنة، وأن النافرين إليه دعاة فتنة وإرهاب!! سبحانك هذا بهتان عظيم. أهذا جزاء من يدافع عن المسلمين ودينهم وأعراضهم وأموالهم وديارهم؟ أهذا جزاء من يسعى لرفع الذلة والمهانة والاضطهاد عن المسلمين؟ أهذا جزاء من ترك أهله ووطنه حاملاً روحه في كفه، يبتغي مرضات الله ﷻ وجنته بنصرة دينه ومقاتلة أعدائه.

إن الواجـب علينـا أن نحمد الله ﷻ ونشـكره على أن قيض من شـاء مـن عباده للقيـام بفريضة الجهاد في سـبيل الله ﷻ وسـلطهم على أعدائه، ليحولـوا بينهـم وبين تحقيـق أهدافهم الخبيثـة، فحق إخواننـا المجاهدين نصرتهـم، والوقوف معهـم في جهادهم بكل ما يحتاجونـه من مال ورأي وإعـلام ودعـاء والذب عن أعراضهـم، فبجهادهم أخـرج الله ﷻ الغزاة الـروس من بـلاد الأفغان، وبجهادهـم أحبط الله ﷻ خطـط الأمريكان،

(١) «سُفرة الزاد في سَفرة الجهاد» (للآلوسي) (ص٥).

ومن ساندهم من الغرب والعرب في تقسيم بلاد المسلمين وتغيير خارطة البلدان الإسلامية بما يسمى بالشرق الأوسط الكبير، وبجهاد المجاهدين لم يقر للغزاة قرار في البلدان التي غزوها، بل هم في رعب وعدم استقرار، وبجهاد المجاهدين أنزل الله بهم الخسائر العظيمة في الأرواح والأموال.

لقد خرجت أمريكا من ديارها بطراً وكبراً ورئاء الناس، وهم يقولون من أشد منا قوة؟ فاستباحت ديار المسلمين، واحتلت أفغانستان والعراق، وبشروا بمشروع الشرق الأوسط الكبير زاعمين أنهم سيجعلون العالم أكثر أمناً واستقراراً، فغدا أشد خوفاً ورعباً وأنهم سيضعونه أكثر رفاهاً فغدا أشد فقراً. وكانوا يظنون أن احتلال هذين البلدين سيكون نزهة سريعة يعودون بعدها بالثروات العظيمة من الغاز الطبيعي في أفغانستان وحقول النفط في العراق والخليج، وسيعودون بآلاف المليارات التي تعوض خسائرهم وها هم يتجاوزون العقد من الزمان في غزوهم، وها هي غطرستهم وقوتهم وكبريائهم تتحطم وتنهار على يد من احتقرتهم في أفغانستان وسخرت منهم في العراق، وأصبح المجاهدون على ضعفهم وقلة الناصر لهم غصة في حلوقهم، تلحقهم الهزائم يوماً بعد يوم، حتى قصمهم الله ﷻ بانهيار اقتصادهم انتصاراً منه سبحانه لعباده المؤمنين، فجزى الله المجاهدين عنا وعن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها خير الجزاء، فلقد كانوا سبباً رئيساً فيما لحق ويلحق بالأمريكان وحلفائهم من الهزائم والانهيارات المتلاحقة والحمد لله.. فهلا قدرنا للمجاهدين حقهم وعرفنا قدرهم وقمنا بنصرهم ودعمهم؟ وحتى لا يأتي آت ويستخف

بهذا الكلام، أسوق ما ذكره مكتب خدمات البحث بالكونجرس الأمريكي من إحصائيات عن خسائرهم في حرب العراق فقط، وذلك في مجلة الفورن بوليسي (نقلاً عن قناة الجزيرة).

في عام ٢٠٠٣	كانت الخسائر (٩٣٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٤	كانت الخسائر (١١١٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٥	كانت الخسائر (١٦٤٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٦	كانت الخسائر (١٨٨٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٧	كانت الخسائر (٢٤٥٠٠٠دولار) كل دقيقة
في عام ٢٠٠٨	كانت الخسائر (٣٧١٠٠٠دولار) كل دقيقة
	أي ما يقارب مجموعه (٧٠٠ مليار دولار)

مع أن الخبير الاقتصادي الأمريكي (جوزيف ستيجليتر) قدرها بأكثر من ذلك بكثير، حيث أوصلها إلى (٣ ترليون دولار).

أما إحصائيات حربهم المزعومة على الإرهاب حسب ما جاء في المجلة نفسها فهي كالآتي:

في عام ٢٠٠١	كانت ١٨ مليار دولار
في عام ٢٠٠٢	كانت ١٣ مليار دولار
في عام ٢٠٠٣	كانت ٥٤ مليار دولار
في عام ٢٠٠٤	كانت ٧٤ مليار دولار
في عام ٢٠٠٥	كانت ١٠٠ مليار دولار
في عام ٢٠٠٦	كانت ١١٦ مليار دولار

في عام ٢٠٠٧	كانت ١٦٦ مليار دولار
في عام ٢٠٠٨	كانت ١٩٥ مليار دولار
	أي ما مجموعه (٧٣٦ مليار دولار)

وقد كانوا يعلمون أن هذه الأموال الهائلة ستؤثر على هيكلة الاقتصاد الأمريكي كله، وأنه سيكون على حساب الإنتاج المدني الداخلي، ولكنهم كانوا يراهنون على أن احتلال أفغانستان والعراق سيكون سريعاً، وسيعوضون خسائرهم بوقت سريع، فلم يمهلهم المجاهدون ليستردوا ذلك، وها هم يسيرون من هزيمة إلى هزيمة وهذا من رحمة الله ﷻ وفضله، ثم فضل الجهاد وما قام به المجاهدون الأبطال من مقارعة القوم والإثخان فيهم، وردهم على أعقابهم خائبين. وقد كانوا مغرورين بقوتهم ناسين قوة الله ﷻ فأنساهم سبحانه، وأغفلهم عما يترتب على حماقاتهم من الكوارث والانهيارات، فدفعهم الله ﷻ دفعاً إلى نهايتهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧].

ولقد حق عليهم قوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

والمجاهدون كغيرهم من البشر يخطئون ويصيبون وليسوا بمعصومين، وقد يبدر من بعض أفرادهم أخطاء ومخالفات، وحينئذ نحن

مأمورون وملزمـون بالمنهج الشرعي في التعامل مع الأخطاء ومرتكبيها. المنهـج الذي يقوم عـلى التثبت أولاً من وقوع الأخطـاء وتوثيقها، ويقوم ثانيـاً على التفريق بين كون المخالفة خطأً فردياً أم منهجاً عاماً، ويقوم ثالثاً عـلى العـدل والإنصاف وعدم بخس المجاهديـن حقوقهم، وذلك بأن لا تنسـينا الأخطاء ما قدموه ويقدمونه من بذل وتضحيات ونكاية بالأعداء الغزاة، مما نحسبه في سبيل الله ﷻ.

كما أن هذا المنهج يراعي فقه الموازنات وتعارض المصالح الفاسـدة؛ أي أن مناصحة الدعاة والمجاهدين بعضهم مع بعض يجب أن يراعى فيها الحـرص على اجتـماع الكلمة وتوحيد الصفوف، كما يجـب أن يراعى فيها التوقيت وأسـلوب النصح وظروف الأمة وقوتها وضعفها، بحيث نقطع عـلى خصومنا من الكفرة والمنافقين من توظيف ذلك في صالحهم، كما هو الواقع اليوم فلا يصلح أن تكون المناصحة في هذه الأحوال في منابر عامة، وإنما ينبغي أن يكون بصفة خاصة بين المتناصحين بشفقة ورحمة.

ويحسن في هذا المقام أن أنقل ما كتبته منذ عدة سنوات عن هذا الشأن في مقالة بعنـوان (المنهج القرآني في التعامل مع أخطاء المجاهدين)، وكان مما جاء فيها:

(وقفـت في كتـاب الله ﷻ على آيـات كريمة عظيمة ترسـم لنا المنهج الحـق العـدل في التعامل مع أخطـاء المجاهدين، دون إفـراط ولا تفريط، ودون أن يوظفهـا العـدو في صالحه، وهذه الآيات هـي قوله -عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ

ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٧-٢١٨].

وقبل أن نقف عند الدروس من هذه الآية وما فيها من منهج حاسم في التعامل مع أخطاء المجاهدين وأعداء المجاهدين، يحسن بنا أن نقف على سبب نزول هذه الآيات، كما جاءت في كتب التفسير.

قد جاء في روايات متعددة أنها نزلت في سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه وكان رسول الله ﷺ قد بعثه مع ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار، ومعه كتاب مغلق، وأمره ألا يفتحه حتى يمضي ليلتين، فلما فتحه وجد فيه: «**إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا، فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ بَطْنَ نَخْلَةَ -بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ- ترصد لَنَا قُرَيْشًا وَتَعْلَمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ.. وَلاَ تُكْرِهَنَّ أَحَداً عَلَى المَسِيرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ**» - وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى. فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة.

ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر. وقد نهى أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأنا ماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه،

لم يتخلف أحد منهم. فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ﷺ فتخلفا عن رهط عبدالله بن جحش؛ ليبحثا عن البعير ومضى الستة الباقون. حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتلت السرية عمراً ابن الحضرمي وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير. وكانت تحسب أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة. فإذا هي في اليوم الأول من رجب -وقد دخلت الأشهر الحرم- التي تعظمها العرب. وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها. فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال: «**مَا أَمَرتكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ**». فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا؛ وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال)[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في تعليقه على قصة عبدالله بن جحش وما نزل فيها من الآيات القرآنية: (والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون

(١) أورد هذه القصة ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة»، وقد رواه البيهقي في «سننه الكبرى» (٩/ ١٢) بسند صحيح عن الزهري عن عروة مرسلاً، وقد وصله هو وابن أبي حاتم وسنده صحيح. انظر: تخريج الألباني لأحاديث «فقه السيرة» للغزالي (ص٢٣١).

أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصرين نوع تقصير، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله، وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يقاس ببغيض عدو جاء بكل قبيح ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن)[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية: (نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، نعم! ولكن: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧] إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان. إنما هم المشركون هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله، ولقد كفروا بالله، وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وأخرجوا أهله منه، وهو الحرم الذي جعله آمناً، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٧٠).

في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام، ووضح موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات؛ الذين يتخذون منها ستاراً حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من المحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة! لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل، وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء، وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء.

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!.. ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!)[1].

وفي ختام هذه الفقرة أوصي إخواني المجاهدين بأن يتقوا الله ﷻ وأن لا يزكوا أنفسهم فهم بشر يخطئون ويصيبون، وأن يبذلوا الوسع في توقي الذنوب وما يسخط الله ﷻ، فإن الذنوب أخطر على المجاهدين

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٢٠٦).

مـن عدوهـم، وهي سـبب الهزائـم والخـذلان، ويكفينا تذكـر ما حصل للمسـلمين في غزوة أحد، وإن من أخطر وأكبر الذنوب التي تهدم الجهاد وأهله التنازع والتفرق، المؤديان إلى الفشل والهزيمة وتسلط الأعداء.

كما أوصي إخواني الدعاة أن يعدلوا في نقدهم لإخوانهم المجاهدين، وأن يتجنبـوا المنابـر العامة في ذكـر الأخطاء، كما أوصيهـم وهم يذكرون أخطـاء المجاهدين أن ينهجوا ذلك المنهج الرباني الآنف الذكر فيصدرون حديثهـم ونقدهم لأخطاء المجاهدين بذكر ما هو أكبر من ذلك وأشـنع، وذلك بما يقوم به اليوم الكفرة الغزاة وأولياؤهم المنافقون من قتل وتشريد وسجن وتجويع وحصار خانق على المسلمين وصد عن سبيل الله ﷻ وقبل ذلـك كفرهـم بالله ومحادتهم للإسـلام وأهله في بلاد العراق وأفغانسـتان والشيشان وفلسطين وغيرها من بلدان المسلمين.

المبحث الثاني

التصدي للغزو الفكري وبث الشبهات

وهـذا النـوع مـن الغزو من أشـد أنـواع الغـزو الموجه للمسـلمين، والتصدي له وكشـف شـبهاته من أفضـل أنواع الجهـاد وأحبه إلى الله ﷻ ، ووسـيلة التصـدي له تكون بجهـاد البيان والحجة: بيان سـبيل المؤمنين وبيان سـبيل المجرمين، وهذه مهمة العلماء الربانيـين والدعاة الصادقين، بـل هي من أبرز صفـات الصديقين في هذه الأمة، الذيـن علموا وعملوا وبينـوا الحـق للناس، وصبروا عـلى ذلك كله، وقد يسـتهين بعض الناس بهـذا الضرب مـن الجهاد، ويظـن أن جهاد الكفـار الغزاة باليد والسـنان أفضل منه وأولى.

والحـق أن الأمـر ليس كذلك، فـإن جهاد البيان إذا قـام به أهله حق القيام فإنه قد يفوق جهاد السـنان، ويحتـاج إلى صبر عظيم لأن بيان الحق ومقارعة الباطل وكشـف زيفه وتلبيسـه أعظم أنواع الجهاد، وما يتعرض لـه القائمـون بـه مـن البلاء والمحن أشـد ممـا يتعـرض له المجاهـدون في سـاحات الوغى، ولأن جهاد السـنان يكون في وقت محـدد ومعدود، أما جهاد البيان فهو مسـتمر في حياة العلماء والدعـاة طول الحياة. يضاف إلى ذلك أن جهاد اليد والسـنان يحسنه كل أحد يجيد حمل السلاح والرمي به، أو أي خدمـة تقـدم للمجاهدين من حراسـة، أو تجهيز طعـام، أو مداواة

جرحى، وهذه المهمات لا تحتاج إلى علم وفقه، بل يقوم بها العامي ولو لم يكن من أهل العلم. بينما جهاد البيان وكشف الشبهات ومصاولة الباطل وبيان زيفه، لا يحسنه إلا أهل العلم الربانيين، وقلما تحصل بهم الكفاية، ولاسيما في مثل أزمتنا اليوم الذي أجلب فيه أهل الكفر والنفاق على ديار المسلمين محاولين مسخ هوية المسلمين وتشويه عقيدتهم وزعزعة أفكارهم وأخلاقهم، مستخدمين في ذلك ما قدروا عليه من وسائل الإعلام المختلفة ووسائل التنصير والاستشراق والتعليم.

وللتدليل على أهمية جهاد الدعوة والبيان وأن ما يواجه أهله من البلاء والمصائب والمصاعب أكثر وأشد ممَّا يواجه المجاهدين باليد والسنان. أسوق الرواية الآتية التي يخبر فيها النبي ﷺ أن ما أصابه من الشدائد في مكة وهو يدعو الناس إلى التوحيد، ويبين لهم حقيقة دين الإسلام أكبر وأشد عليه مما أصابه في غزوة أحد والأحزاب، وأصاب أصحابه من الشدة والقرح والابتلاء.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**»، قال:

«فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال له رسول الله ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»**[1].

ويحسن بهذه المناسبة إيراد ما ذكره الإمام ابن تيمية رحمه الله في أهمية وفضل جهاد البيان، وأنه من أعظم أنواع الجهاد، وذلك في كتابه العظيم (منهاج السنة)، وذلك في معرض رده على شبهة الرافضي في أن علياً رضي الله عنه قد سبق الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في الشجاعة والجهاد بالسنان في سبيل الله عز وجل فكان مما قال رحمه الله: (ومما ينبغي أن يعلم أن الشجاعة إنما فضيلتها في الدين لأجل الجهاد في سبيل الله، وإلا فالشجاعة إذا لم يستعن بها صاحبها على الجهاد في سبيل الله، كانت: إما وبالاً عليه إن استعان بها صاحبها على طاعة الشيطان، وإما غير نافعةٍ له إن استعملها فيما لا يقربه إلى الله تعالى.

فشجاعة علي والزبير، وخالد وأبي دجانة، والبراء بن مالك وأبي طلحة، وغيرهم من شجعان الصحابة - إنما صارت من فضائلهم لاستعانتهم بها على الجهاد في سبيل الله؛ فإنهم بذلك استحقوا ما حمد الله به المجاهدين.

وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الجهاد منه ما يكون بالقتال باليد، ومنه ما يكون بالحجة والبيان والدعوة.

---

(١) مسلم (١٧٩٥).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]، فأمره الله -سبحانه وتعالى- أن يجاهد الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً، وهذه السورة مكية نزلت بمكة، قبل أن يهاجر النبي ﷺ وقبل أن يؤمر بالقتال، ولم يؤذن له، وإنما كان هذا الجهاد بالعلم والقلب والبيان والدعوة لا بالقتال، وأما القتال فيحتاج إلى التدبير والرأي،ويحتاج إلى شجاعة القلب، وإلى القتال باليد. وهو إلى الرأي والشجاعة في القلب في الرأس المطاع أحوج منه إلى قوة البدن، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما مقدمان في أنواع الجهاد غير قتال البدن.

قال أبو محمد بن حزم: وجدناهم يحتجون بأن عليًّا كان أكثر الصحابة جهاداً وطعناً في الكفار وضرباً، والجهاد أفضل الأعمال. قال: وهذا خطأ؛ لأن الجهاد ينقسم أقساماً ثلاثة:

أحدها: الدعاء إلى الله تعالى باللسان. **والثاني**: الجهاد عند الحرب بالرأي والتدبير. **والثالث**: الجهاد باليد في الطعن والضرب. فوجدنا الجهاد باللسان لا يلحق فيه أحد بعد النبي ﷺ أبا بكر ولا عمر. أما أبو بكر: فإن أكابر الصحاب أسلموا على يديه، فهذا أفضل عمل، وليس لعلي من هذا كثير حظ، وأما عمر: فإنه من يوم أسلم عز الإسلام، وعبد الله علانية، وهذا أعظم الجهاد. وقد انفرد هذان الرجلان بهذين الجهادين اللذين لا نظير لهما، ولا حظ لعلي في هذا.

وبقي القسم الثاني، وهو الرأي والمشورة، فوجدناه خالصاً لأبي بكر ثم لعمر. بقي القسم الثالث، وهو الطعن والضرب والمبارزة، فوجدناه

أقل مراتب الجهاد ببرهان ضروري، وهو أن رسول الله ﷺ لا شك عند كل مسلم في أنه المخصوص بكل فضيلة، فوجدنا جهاده ﷺ إنما كان في أكثر أعماله وأحواله بالقسمين الأولين من الدعاء إلى الله ﷻ والتدبير والإرادة، وكان أقل عمله الطعن والضرب والمبارزة، لا عن جبن، بل كان أشجع أهل الأرض قاطبةً نفساً ويداً، وأتمهم نجدةً، ولكنه كان يؤثر الأفضل فالأفضل من الأعمال، فيقدمه ويشتغل به، ووجدناه يوم بدرٍ -وغيره- كان أبو بكرٍ معه لا يفارقه، إيثاراً من النبي ﷺ له بذلك، واستظهاراً برأيه في الحرب، وأنساً بمكانه، ثم كان عمر ربما شورك في ذلك، وقد انفرد بهذا المحل دون علي، ودون سائر الصحابة، إلا في الندرة.

ثم نظرنا مع ذلك في هذا القسم من الجهاد، الذي هو الطعن والضرب والمبارزة، فوجدنا عليًّا لم ينفرد بالسيوف فيه، بل قد شاركه فيه غيره شركة العيان، كطلحة والزبير وسعد، ومن قتل في صدر الإسلام، كحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير، ومن الأنصار سعد بن معاذ وسماك بن خرشة -يعني أبا دجانة- وغيرهما، ووجدنا أبا بكر وعمر قد شاركاه في ذلك بحظ حسن، وإن لم يلحقا بحظوظ هؤلاء، وإنما ذلك لشغلهما بالأفضل من ملازمة رسول الله ﷺ ومؤازرته في حين الحرب، وقد بعثهما على البعوث أكثر مما بعث عليًّا، وقد بعث أبا بكر إلى بني فزارة وغيرهم، وبعث [عمر] إلى بني فلان، وما نعلم لعلي بعثاً إلا إلى بعض حصون خيبر ففتحه. فحصل أرفع أنواع الجهاد لأبي بكر وعمر، وقد شاركا عليًّا في أقل أنواع الجهاد، مع جماعة غيرهم)[1] ا.هـ.

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٨٦).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

(كان الجهادُ في أول الإسلام بتبليغ الحجة، وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥١-٥٢]. فهذه سورةٌ مكيّةٌ أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، فجهاد المنافقين أصعبُ من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفرادٌ في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهو الأعظمون عند الله قدراً. ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا -صلوات الله وسلامه عليه- من ذلك أكمل الجهاد وأتمه)[1].

وبهذا يتبين لنا أهمية جهاد البيان وفضله، وأن الله ﷻ قد فرضه على علماء الأمة لبيان الحق للناس، ولكشف شبهات الأعداء من الكفار والمنافقين، وبيان باطلهم ودحض حجتهم، فما أعظم الأمانة الملقاة على كاهل العلماء والدعاة، وما أعظم أجرهم إن هم قالوا الحق وفضحوا الباطل للناس، وقاموا في ذلك مخلصين لله تعالى، وما أعظم وزرهم إن

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥).

هم كتموا الحق أو لبسوا الحق بالباطل، وما أحوج الأمة اليوم إلى علمائها ليقودوها في وسط هذه الأمواج المتلاطمة، ويوصلوها إلى بر الأمان، ويخرجوها من هذا التيه، ويخلصوها بما آتاهم الله ﷻ من العلم من شبهات المشبهين وانتحال المبطلين. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وإن أمانة القيام بجهاد البيان لتعظم في زماننا اليوم الذي بلغ فيه غزو الأعداء لعقيدة المسلمين ذروته، ولاسيما بعد انتشار وسائل الإعلام المتنوعة ووسائل التواصل بالجوال والحاسوب الذي يخترق عقول المسلمين ويدخل إليها بلا استئذان محملة بآلاف المواقع التي تبث الشبهات وتفتك في العقول والأفكار، ومشاركة مع مشائخي العلماء وإخواني من طلبة العلم في جهاد البيان وكشف الشبهات.

أتناول في المباحث القادمة بعض صور الغزو الفكري والعقدي من قبل أعداء المسلمين من الكفار المنافقين والتي سبق ذكرها، وسبل تفنيدها وبيان باطلها، وبيان الحق الدامغ لها، ولكن يحسن بنا التقديم لذلك بمقدمتين مهمتين:

- **الأولى**: عن الشبهات تعريفها، وبيان خطرها، والتحذير من الوقوع فيها.
- **الثانية**: عن التأويل وخطره وتأثيره وكونه سبباً في التعلق بالشبهات وما ينجم عن ذلك من فساد.

المقدمة الأولى: الشبهات تعريفها، وبيان خطرها والتحذير من الوقوع فيها:

تعريف الشبهة: قال في «اللسان»: الشبهة: (الالتباس، والمشتبهات من الأمور: المشكلات، وشبه عليه: خلط عليه الأمر حتى اختلط بغيره)[1].

وعرفها الجرجاني في «التعريفات» بأنه: (هو ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً)[2]. ولعل هذا التعريف أخذ من قوله ﷺ: «**الحلالُ بينٌ والحرامُ بيّنٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهةٌ**»[3].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها)[4].

وقال أيضًا: «الشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له»[5].

التحذير منها: وقد حذرنا الله ﷻ، وحذرنا رسوله ﷺ والسلف من بعده من سماع الشبهات وتتبعها أو الجلوس مع الخائضين فيها. وهذا من باب اتخاذ الوسائل الواقية من الوقوع في الشبهات، قال الله ﷻ في وصف أهل الزيغ المتبعين للشبهات، ووصف أهل العلم والإيمان الرافضين لها:

---

(١) «لسان العرب» (١٣/ ٥٠٣).
(٢) «التعريفات» (باب الشين) (١/ ١٦٥).
(٣) البخاري (٥٢) (١٩٤٦)، مسلم (١٥٩٩).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠)، ط دار الكتب العلمية.
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٠٤).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٧-٨].

وحذرنا -سبحانه- من مجالس أهل الزيغ الخائضين في آيات الله ﷻ بقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]، وهذا النهي يشمل القعود معهم مباشرة ومشافهة، أو القراءة في كتبهم، أو سماع مناظراتهم في أجهزة الإعلام، أو الدخول على مواقعهم، فالعلة في النهي واحدة في الجميع.

كما حذرنا الرسول ﷺ من اتباع المتشابهات والمناظرة فيها، وذلك في الأثر الذي رواه اللالكائي في «أصول أهل السنة» بسنده عن عمرو ابن شعيب عن أبيه، عن جده: أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ قال: فسمعهم رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، فَانْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَانْظُرُوا الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا عَنْهُ**»[1].

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٢٩) وسنده حسن.

فهـذا نبي الله ﷺ غضب غضباً شـديداً عندمـا رأى بعض الصحابة يتجادلـون في القـرآن، وأمرهـم بالكـف وذلـك لرحمته ﷺ بهـم وبأمته، وخوفه عليهم، مما قد يكون سبباً في زيغهم وضلالهم.

وأمـا ما جاء عن السـلف رضي الله عنهم من التنفير من أهـل البدع والنهي عن مجالستهم والسماع منهم، فالروايات في ذلك كثيرة ومن أشهرها:

* موقـف عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه مـن صبيـغ بن عسـل فقـد روى اللالكائي بسنده قال: أخبرنا أحمد بن علي بن العلاء قال: ثنا أبو الأشعث قال: حدثنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن رجلاً مـن بنـي تميم يقـال له: صبيغ بن عسـل قـدم المدينة وكانت عنـده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث إليه وقد أعد لـه عراجين النخل، فلـما دخل عليه جلس قال: من أنت؟ قال: أنا عبدالله صبيـغ، قـال عمر: وأنـا عبدالله عمـر، وأومأ عليـه فجعل يضربـه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، قال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي[1].

فهذا فعل عمر رضي الله عنه مع الخائضين في الباطل المتبعين للشبهات حيث لم يمكنهم من قول الباطل بحجة النقاش الحر وحرية الرأي والتفكير.

وقـد ضربـه عمر رضي الله عنه؛ لأنه سـأله عن المتشـابه ابتغـاء الفتنة، وليس سؤال استرشاد.

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول السنة» (٤/ ٧٠٣) والدارمي في «سننه» (١٤٦).

* وكان الحسن رحمه الله يقول: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم[1].

* وكان ابن طاوس جالساً فجاء رجل من المعتزلة قال: فجعل يتكلم فأدخل ابن طاوس أصبعيه في أذنيه. قال: وقال لابنه: أي بني! أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد، لا تسمع من كلامه شيئا. قال معمر: يعني أن القلب ضعيف[2].

ومثل هذه المواقف كثيرة، فكيف ممن جعل سمعه وبصره وقفاً على سماع المناظرات الفكرية المنحرفة في وسائل الإعلام المختلفة، وكيف بمن جل وقته تتبع مواقع أهل الشبهات والزيغ وطروحاتهم ومناظراتهم في القنوات، ومواقع الإنترنت؟!

ومن خطورة الشبهات أن أصحابها يعرضونها في ثوب مزخرف يصبغونه بصبغة شرعية قد تنطلي على الجهلة من المسلمين، وفي حقيقته خداع وتتبع للمتشابه من الأدلة وإعراضهم عن المحكم منها، وهذا شأن أهل الأهواء والبدع، وهو من أبرز سماتهم في الاستدلال، حيث يقفون عند المتشابه ولا يردونه إلى المحكم ليتبين وجه الحق من الباطل فيه، وصدق الله العظيم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ الآية [آل عمران:٧]. وما أحسن ما سطرته يد ابن القيم رحمه الله وهو يحذر من الشبهات وأهلها، وما يقومون به من خداع وتلبيس في نشرها، يقول رحمه الله:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(والقلب يتوارده جيشان من الباطل: جيش شهوات الغي وجيش شبهات الباطل فأيما قلب صغا إليها، وركن إليها تشربها وامتلأ بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أُشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه، وقال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات، أو كما قال)، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك. وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك، بل يجاوز نظره إلى باطنها، وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها، ومثال هذا الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته، وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله، وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ، ويردها بعينها بلفظ آخر، وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله وكم رد من

الحـق بتشـنيعه بلباس من اللفـظ قبيح وفي مثل هذا قال أئمة السـنة منهم الإمام أحمد وغيره: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت، فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسـمعه وبصره وسـائر مـا وصف به نفسـه تشـبيهاً وتجسـيماً ومن أثبت ذلـك مشـبهاً فلا ينفر مـن هذا المعنى الحـق لأجل هذه التسـمية الباطلة، إلا العقـول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائـر، وكل أهل نحلة ومقالة يكسـون نحلتهم ومقالتهم أحسـن ما يقدرون عليه مـن الألفاظ، ومقالة مخالفيهـم أقبح مـا يقدرون عليه من الألفاظ، ومـن رزقه الله بصيرة، فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ كما قيل في هذا المعنى:

تقول هذا جنى النحل تـمـدحـه وإن تشـأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سـوء تعبير

فـإذا أردت الاطلاع عـلى كنه المعنى: هل هو حـق أو باطل؟ فجرده مـن لباس العبـارة، وجرد قلبـك عن النفـرة والميل، ثم أعـط النظر حقه ناظـراً بعـين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه، ومن يحسـن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه، وممن يسيء ظنه به كنظر الشـزر والملاحظة، فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ، والناظر بعـين المحبة عكسـه، وما سـلم من هذا إلا مـن أراد الله كرامتـه وارتضاه لقبول الحق، وقد قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

نظـروا بعين عـداوة لـو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يدرك المحسوسات، ولا يتمكن من المكابرة فيها، فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة، والله المستعان على معرفة الحق وقبوله، ورد الباطل وعدم الاغترار به)[1].

ويتحدث رحمه الله عن خطر الخوض بالشبهات الباطلة، وذلك عند قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩].

فيقول: (فذكر تعالى الأصلين وهما داء الأولين والآخرين. **أحدهما**: الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن، فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها، فإنه لا يستمتع بنصيبه كله، ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا، بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١)، دار الكتب العلمية.

ساعية في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوض بالباطل الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل، ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلى هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلاً، ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعوا إلى النار...

... والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا، وهذا فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه، ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها، وحقيقته أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه: حياءً وخوفاً وطمعاً ورجاءً، ففنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقاً وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فأسلم لربه انقياداً وخضوعاً وذلاً وعبودية، وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهراً وباطناً من مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده،

وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها، وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين الى خلافهما)[1].

ويعلق الشيخ عبدالرحمن المحمود -حفظه الله تعالى- على وصية شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم التي جاء فيها: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة» فيقول:

(والشبهات من أشدِّ الأشياء على القلوب وأثقلها، حتى تكاد الشبهة أن تكون جبلاً، وأنى للقلب الرقيق تحمّله.

والمؤمن المستبصر يدرك مدى خطورة الأمر، خاصة إذا علم أنه لا أحد بمأمن من ذلك، مهما علا شأنه في العلم أو العبادة والطاعة، أو في المجاهدة والدعوة، أو فيها جميعاً.

والمتتبع لواقع المسلمين المعاصر، وخاصة طلاب العلم ورجال الدعوة وشباب الصحوة منهم، يرى كيف تسللت شبه كثيرة إلى بعض القلوب.

واللافت للنظر أن كافة هذه الشبهات ليست جديدة، بل هي مما سبق أن عُرِض ودُوِّن في كتبهم، وردَّها العلماء والدعاة وكشفوا زيفها؛ فما الجديد؟ الذي استجد إنما هي حرب مركَّزة على الإسلام وعلى منهاج

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٢) دار الكتب العلمية.

السلف خاصة، ودعمت هذه الحرب قوىً مختلفة معروفة، وقابل ذلك ضَعْف الإيمان وخلل في الثقة بالمنهج، وهو ما جعل هذه الشبهات تلج القلوب، فتُغَيِّر الكثير منها، فصارت هذه القلوب كالإسفنجة تمتص هذه الشبهات، كما تمتص الماء العَفن، فجاءت هذه الوصية الغالية من شيخ الإسلام التي تقول خلاصتها: لا تجعل قلبك للشبهات مثل الإسفنجة، فيتشربها ولا ينضح إلا بها.

فما وجه تشبيه هذا النوع من القلوب بالإسفنجة؟

١- يُلاحظ الشبه بينهما من ناحية التكوين؛ فكلٌّ منهما رقيق ليِّن، ليس في داخله صلابة من عظام ونحوها.

٢- أن الإسفنجة معروفة بطبعها؛ فهي تمتص كل سائل؛ فإن أدخلتها طيِّباً: من ماء عذب أو لبن أو شراب، فإنها تمتصه، كما أنك إن أدخلتها في ماء عفن، أو بول أو نجس: كخمر ونحوه، فإنها تمتصه أيضاً.

٣- أن الإسفنجة إذا امتصت السائل، فلابد أن تنضح بما فيها؛ حيث يخرج منها القطرات، بل أكثر من ذلك إذا ضُغط عليها ولو بقليل من القوة.

وقلَّما تحتفظ بما فيها حتى ينشف، ولو نشفت فما أقبح ما فيها؛ إن كان ما امتصته من المجاري وأشباهها!

٤- أن الإسفنجة متى ما اعتادت امتصاص العفن، تحولت هي إلى عفن؛ فلا ينفع معها تنظيف ولا غسل.

وكذلك القلوب فهي:

أولاً: رقيقة لأنها موطن الإرادة والحب والبغض والمحبة والكره، وهي موطن أعمال القلوب من خوف ورجاء وإنابة وإخلاص، وصدق، وتوبة، وتوحيد، وتوكل وغيرها؛ ولذا فهي تابعة لمن خضعت له:

فإن انقادت لمولاها وسيدها ومالكها بتوحيده والتوكل عليه، وحده لا شريك له وبمحبته ورجائه، وخوفه وسائر أعمال القلوب، فقد اتصفت بصفتين عظيمتين:

إحداهما: كمال الافتقار لمولاها؛ فهي لا تستغني عنه لحظة من ليل أو نهار، مع كمال الانقياد والطاعة، فهي تقود أبدانها إلى مولاها بالاستجابة التامة بفعل الأوامر واجتناب النواهي؛ فإن أذنب العبد، فهي لرقَّتها تُبادر إلى التوبة والاستغفار والحسنات الماحيات.

والأخرى: كمال القوة في الحق، والنفور من الباطل، (شبهات وشهوات). وسبب ذلك أن قوَّتها بالله (عبادةً واستعانةً وتوكلاً)، وهذا من عجيب أحوال قلوب المؤمنين الصادقين؛ حيث تجدها أعظم ما تكون رقة ورحمة، وأقوى ما تكون صلابة في الحق ونفوراً من الباطل، وشجاعة في الدفاع عن الدين الحق وأهله، والموالاة لهم، وردَّ الباطل وأهله والبراءة منهم ومن أعمالهم؛ فهي في الإيمان لا تخاف لومة لائم.

وإن انقادت القلوب -عياذاً بالله- إلى غير الله: من نَفْس أمَّارة أو هوىً أو شيطان، وتمثَّل ذلك في معبود غير الله، أو تعلَّق بجاه أو دنيا أو

شهوة قُدِّمت على عبادة الله وطاعته، تحولت القلوب إلى محبة وخضوع لذلك المعبود من دون الله، فصارت على الضد من صفات المؤمنين، فهي: قاسية في عبادة الله وطاعته والانقياد له، حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة.

وهي ذليلة رقيقة خاضعة لمن مالت إليه، فيها من الضعة والاستكانة والحقارة والعبودية لذلك المعبود من دون الله، ما لا يكاد يصدقه العاقل السوي.

ثانياً: هي (أي: القلوب) بحسب ما تحمل وتربّى عليه؛ فإن حُمِلت على حب الحق والاستجابة له والنفور من الباطل والنكارة له، حُفِظت بعون من الله وتوفيقه من فتن الشهوات والشبهات.

أما إن تُركت مرتعاً لكل عارض مما يعرض لها، تتقبله من غير تمييز، فإنها تكون عرضة للخطرات والوساوس التي يلقيها شياطين الإنس والجن؛ فتصبح مرتعاً للشبهات فتصير كالسفنجة التي حذر منها شيخ الإسلام؛ تمتص الشبهات وبها تنضح، وتصبح مريضة بذلك.

ولتشخيص هذه الحالة في واقعنا المعاصر نلاحظ ما يلي:

١- بروز هذه الظاهرة الإسفنجية لدى بعض طلاب العلم والشباب المستقيم ونحوهم ممن لهم اهتمامات بالعلم الشرعي، أو بالقراءة بمعناها العام الشامل لما يُشاهَد أو يُسمَع أو يُقرَأ، أو بحب سماع الحوارات التي تدور بين الأطياف المختلفة في عقائدها، أو في مشاربها أو في مناهجها؛ فتجد بعض هؤلاء -هدانا الله وإياهم وثبَّتنا على الحق جميعاً- يتشرب شبهات أهل الباطل، فتستقر في نفسه.

وإذا علمنا أن للشبهات بريقاً ولمعاناً محرقاً، خاصة إن عُرضت بأسلوب ماكر تصحبه سخرية وهزء بأهل الحق المتمسكين به؛ عندها يتبيَّن مدى أثر هذه الشبهات على القلوب الإسفنجية الضعيفة؛ حيث تتحول القلوب إلى نوع من القلق، وشيء من الحيرة والشك؛ حيث يتصارع في قلبه ثقته بمنهجه وعقيدته الصافية، وقوة الشبهة وشدة جَذْبها وقوة حَرْقها.

وفي هذه الحالة المَرَضية العارضة المقلقة يكون للقلب أحد مسارين:

أ- مسار يؤوب فيه القلب إلى سكينة الإيمان وبرد اليقين، والتسليم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ؛ بحيث تكون له خبيئة من عبادة وطاعة يتقرب بها إلى الله، تعالى؛ فتُجدِّد له هذه العبادة ثوب الإيمان والتعلق بمقلِّب القلوب -تبارك وتعالى- فيتوجَّه إليه منيباً مخبتاً متوكلاً، أو يكون له صاحب أو أصحاب، مثل شيخ يثق به ويباحثه أو يسائله عما عرض له من شبهات، فيتلقى الجواب وهو على حالته السابقة من التسليم والعبادة؛ فهذا غالباً ما يعود إليه اليقين ويَسْلم من غوائل ما عرض لقلبه من الشبهات؛ فينتبه لنفسه لاحقاً.

ب- مسار لا يوفَّق فيه لتسليمٍ ولا لمزيد طاعة، ولا لمعالجة صحيحة لهذا العارض؛ فهذا قد تشتد عنده حالة الشك والقلق، ويبقى حبيس نفسه وهواه وهواجسه ووساوسه، فينتج عن ذلك مرضان:

- **رسوخ الشبهة أو الشبهات**: لأن القلب تَشرَّبها واختلطت به، كالإسفنجة التي امتصت الماء العفن.

- **نَقْل الشبهة إلى غيره**: حيث تجده ينشرها بين أصحابه، ويعرضها في كل مناسبة، ويكرر عرضها؛ وكأنه لم يبقَ معه من القول والهمِّ في دينه ودنياه إلا ما أُشرِب قلبه من ذلك؛ فهو لا يكتفي بمرض قلبه، وإنما ينقل عدواه إلى الآخرين السالمين الأصحاء.

والطامة الكبرى تكون حين يخص بهذه البوائق أحبابه وأصحابه المقربين منه أو طلابه المتأثرين به؛ فما أعظمها من مصيبة وقعت على الطرفين!

وهذا معنى تشبيه القلب بالإسفنجة؛ لأنها إذا امتصت العفن صارت تنضح وتقطر بما فيها من ذلك، كما هو مشاهد، وكذا القلب الشبيه بذلك.

إذن ما المخرج من هذه الحالة الإسفنجية؟ إن العلاج والوقاية من ذلك تكون بأمور منها:

- **أولاً: العبادة والطاعة والتضرع بين يدي الله ﷻ وسؤاله الثبات والهداية إلى الحق**

وهذا أمر قد لا ينتبه له المشغولون بالقراءة والثقافة والفكر وسعة الاطلاع؛ حيث يظنون أن سَعة العلم كافية وأن كثرة القراءة وحدها محصِّنة للإنسان في حياته من الزيغ والانحراف، حتى إنهم يستعيضون بها عن الدعاء والعبادة وأفعال القرب؛ فقد يؤخر أحدهم الصلاة أو

يتأخر عن صلاة الجماعة أو بعضها؛ لانشغاله بالقراءة، وقد يرى التسبيح والأذكار مشغلة عما هو أهم (وهو القراءة).

وقد لا يجد في صلة رحمه من الأقربين جداً واجتهاداً، كالذي يقدِّمه في ساعات يقضيها على الشبكة المعلوماتية، (وأنا أتكلم عن الجاد منها وليس عن سخافاتها)، وقد لا يحرص على النوافل؛ لأنها تأخذ منه وقتاً، بل قد لا يجد ما يفرِّغ به نفسه لقراءة القرآن الكريم أو حفظه أو تدبُّر معانيه عُشر معشار ما يقضيه في القراءة المبعثرة الهائمة.

إن هذه حالة يجب أن يبادر أصحابها إلى علاج قلوبهم تجاهها؛ وذلك بحمل النفس على تحمُّل العبادة بأنواعها مع تهيئة البال والنفس والقلب؛ لكي يطيب بالعبادة ويأنس بها؛ فيكون ممن يرتاح بالعبادة وليس ممن يرتاح منها.

والنصيحة بالعبادة عند ورود الفتن؛ حيث تضطرب القلوب، وتصاب البصيرة بالغبش، خير دليل على أهمية العبادة والطاعة والقربى إلى الله -تعالى- وعلى كونها تنير البصائر عند ورود الشبهات.

• **ثانياً: الابتعاد عما يقسي القلب ويضعفه**، خاصة ما عظمت الفتنة فيه في السنوات الأخيرة، مثل:

١ - مجالس المنكر ومنتدياته التي تقوم -في غالبها- على نشر الإلحاد والزندقة ونشر البدعة والاستهزاء بالله ورسوله ﷺ وشريعته ودينه وعباده المؤمنين.

وهي تقوم على فكر منحرف وثقافة مستورَدة، وتسعى إلى التشكيك ونَشْر الشُّبه بين أهل الإسلام.

وكفى بذلك مرضاً للقلوب؛ فهذه فيها السم الزعاف، ولا يجوز لأحد دخولها إلا المتمكن يريد إنكار المنكر، ومع هذا؛ فهو حكيم يمر بها لغاية يريد تحقيقها، يخدم بها دينه ويردُّ صَوَلان هذه المنكرات.

ثم هو يمر مسرعاً لا يقيم معها ولا يطيل بحجة معرفة المنكر، بل في قلبه من حرارة الولاء والبراء ما يصرفه عنها إلى برد الإيمان والعلم والطاعة.

٢- **مجالس ومواقع قاذورات الإعلام، وفتنها وخاصة فتنة الصور** وما يتبعها من مجون يُقرأ أو يُسمع أو يُشاهد.

وهذا يقسي القلب، ويُضعِف العبادة؛ فيمرض صاحبه، ويكون عرضة للشبهات التي قد يقوده إليها من تساهل فيه من الولوغ في الشهوات.

• **ثالثاً: أن تجعل قلبك كالزجاجة الصافية المصمتة** كما أوصى شيخ الإسلام؛ فيكون لقلبك بصر نافذ عند ورود الشبهات، فيعرف أنها شبهة وليست عِلماً، فيتعامل معها على هذا الوضع)[1] ا.هـ.

• **رابعاً:** ومما يحمي من الوقوع في الشبهات والانخداع بها قوة اليقين والإيمان بالله ﷻ وأسمائه الحسنى وقوة اليقين باليوم الآخر، قال الله ﷻ:

(١) مجلة البيان عدد (٢٧٠).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣].

يقول العلامة محمد أمين الشنقيطي رحمه الله: (في هذه الآية ترتيب غريب عجيب بالغ في الحسن؛ لأن السبب الأول -أي في قبول الباطل- هو الغرور والخديعة، فتسبب عن الغرور والخديعة أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلوب وميلها أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه أن اقترفوه.. والمؤمنون يعرفون زخارف الشيطان ورجسه فيتباعدون منه ويجتنبونه)[1].

ومفهوم الآية أن اليقين باليوم الآخر يحقق مجانبة الإصغاء إلى هذا الخداع والفرار منه، فالمؤمنون بالله واليوم الآخر قد استنارت بصائرهم فنظروا في حقائق الأمور فلم يهولهم زخرف الباطل وغروره)[2].

وأختم هذا المبحث بالتنبيه على أمور ينبغي مراعاتها في مدافعة الشبهات، وذلك فيما يلي:

١- إذا كانت الشبهة واضحة البطلان ظاهرة العوار لا يلتفت إليها، فإن الخوض في إبطالها تضييع للزمان وإشهار لها. إنما المدافعة للشبهات

(١) العذب النمير تحقيق خالد السبت (٢/ ٥٨١).
(٢) انظر: (مدافعة الشبهات) د. عبدالعزيز آل عبداللطيف، مجلة البيان العدد (٢٦٩).

التي يضل بها بعض الناس[1]، إذ لا يشتبه على الناس الباطل المحض، بل لابد أن يشاب بشيء من الحق[2].

٢- ينبغي في مدافعة الشبهات أن لا تذكر الشبهة ابتداءً واستقلالاً بل الأولى أن يبدأ بتقرير الحق، وتبيين الهدى بأدلته وبراهينه النقلية والعقلية، ثم يتلوه الجواب عن الشبهات الواردة عقب هذا التقرير والتأصيل[3].

٣- ينبغي أن يكون مدافعة الشبهات للضرورة، وأن لا يتصدى لها إلا أولو العلم الراسخين العالمين بسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، لأن مدافعة أهل الشبهات والأهواء معركة سلاحها العلم والبصيرة في الدين. يقول العلامة ابن الوزير رحمه الله: (المحامي عن السنة الذاب عن حماها: كالمجاهد في سبيل الله تعالى. يعد للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠][4].

٤- التوسط مع الشبهات أثناء سماعها من الآخرين أو ورودها من المخاطبين، فلا يزجر كل سائل تعرض له شبهة، ولا يهمل كل من وقع في حيرة أو اشتباه؛ فهذا الإعراض والإهمال قد يفضي ببعضهم إلى الزندقة أو الخروج عن السنة. أما من تقصد الشبهات أو دعوة

---

(١) انظر: «التدمرية» (ص١٠٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٧).

(٣) انظر: (مدافعة الشبهات) د. عبدالعزيز آل عبداللطيف (المصدر السابق).

(٤) «إيثار الحق على الخلق» (ص٢٠).

الناشئة إلى إثارتها، كما يفعله بعض أهل الزيغ في القديم وفي واقعنا المعاصر، فهذا قد ينفع في حقه الزجر أو الإهمال، والأولى في حق مثل هؤلاء أن يردون إلى الأصول الكبار فقد يكون الاختلاف فيها. وشبهته التي يثيرها إن هي إلا نتيجة لفساد الأصول الكبيرة التي تتعلق بأصول الإيمان والتوحيد.

٥- سبب الوقوع في الشبهات: إما جهل بالشريعة أو هوى وشهوة ومرض في القلب، يغطيها صاحبها بشبهة دليل فيلبس الحق بالباطل، وعلى القائم بدفع الشبهات أن يسبر أحوال المثيرين للشبهات أو الواقعين فيها، فإن كان السبب جهلاً بمحكمات هذا الدين، فيكون الدفع بتعليم الجاهل وإزالة شبهته القائمة على الجهل بالأدلة المحكمة. أما إذا كان السبب شهوة يغطيها بشبهة، فينبغي أن يذكر أمثال هؤلاء بالإخلاص والصدق مع الله ﷻ وتقواه في السر والعلن، وتذكيره بأن شجرة الإيمان لا تقوم إلا على ساق التسليم لخبر الله ﷻ وأمره القدري والشرعي وتذكيره بالآخرة والحساب والجزاء؛ مع السعي لبيان تهافت شبهته بالدليل.

٦- على المتصدي لبيان الحق ودفع الشبهات عنه أن يجرد نيته لله ﷻ وأن يستعين بالله تعالى في قومته، وأن يكثر من الدعاء وسؤال الله ﷻ التثبيت والسداد والهداية للحق له وللمدعو.

• **المقدمة الثانية: التأويل خطره، وأثره في فساد الاعتقاد والأعمال ونشر الشبهات**

ومن باب التأويلات الفاسدة يدخل أهل الشبهات والزيغ والانحراف ليفسدوا على المسلمين عقيدتهم وأخلاقهم. بل إن باب الشبهات الذي سبق الحديث عنه في المقدمة السابقة لا يدخل منه إلا بمفاتيح التأويل الفاسد والتحريف ولي أعناق الأدلة والنصوص. وأصل التأويل الفاسد مبني عند أهله على تقديس العقل وتقديمه على النقل، بحيث ما ظهر في عقولهم من النصوص متعارضاً مع أفهامهم، فإن كان حديثاً نبوياً ردوه، ولو كان صحيحاً بحجة أنه حديث آحاد، وإن كان من القرآن أولوه إلى ما يوافق عقولهم وأهواءهم، وزعموا أن الظاهر غير مراد.

ولبيان خطر التأويل وما أحدث في هذه الأمة من الفساد في الدين والدنيا على مدار التاريخ الإسلامي، أنقل ما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذه الجنايات والمفاسد التي نجمت بسبب فتح باب التأويل. يقول رحمه الله:

(إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق والاختلاف، وما دفع إليه أهل الإسلام وجده ناشئاً من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن وأخبار الرسول التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه، فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين والتحارب وتفرق الكلمة وتشتت الأهواء وتصدع الشمل وانقطاع الحبل وفساد ذات البين، حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضاً، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين، وتستحل منهم أنفسهم وحرمهم وأموالهم، ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم...

ومـن أعظـم آفات التأويل وجناياته أنه إذا سـلط على أصول الإيمان والإسـلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان خمسـة، وهـي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر[1]، وأصول الإسـلام خمسـة وهي كلمة الشـهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فعمـد أربـاب التأويـل إلى أصول الإيمان والإسـلام فهدموهـا بالتأويل، وذلـك أن معقد هذه الأصول العشرة تصديق الرسـول فيما أخبر وطاعته فيـما أمـر، فعمـدوا إلى أجل الأخبـار وهو ما أخـبر به عن الله من أسـمائه وصفاته ونعوت كماله، فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له...

ومـن جنايات التأويل ما وقع في الإسـلام من الحـوادث بعد موت رسول الله وإلى يومنا هذا، بل في حياته -صلوات الله وسلامه عليه- فإن خالد بن الوليد قتل بني جذيمة بالتأويل، ولهذا برأ رسول الله من صنعه، وقـال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِد**»[2]، ومنع الزكاة من منعها من العرب بعد موت رسول الله بالتأويل، وقالوا: إنما قال الله لرسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، وهذا لا يكون لغيره، فجرى بسـبب هذا التأويل الباطل على الإسلام وأهله ما جرى ثم جرت الفتنة التي جرت قتل عثمان، بالتأويل، ولم يـزل التأويـل يأخذ مأخذه حتـى قتل به عثمان فأخـذ بالزيادة والتولد حتى قتل به بين علي ومعاوية بصفين سـبعون ألفا أو أكثر من المسـلمين،

(١) الوارد في حديث جبريل: أن أركان الإيمان ستة.. وسادسها: الإيمان بالقدر خيره وشره.

(٢) البخاري (٤٠٨٤)، باب بعث النبي ﷺ خالد.

وقتل أهل الحرة بالتأويل وقتل يوم الجمل بالتأويل من قتل، ثم كان قتل ابن الزبير ونصب المنجنيق على البيت بالتأويل، ثم كانت فتنة ابن الأشعث وقتل من قتل من المسلمين بدير الجماجم بالتأويل، ثم كانت فتنة الخوارج وما لقي المسلمون من حروبهم وأذاهم بالتأويل، ثم خروج أبي مسلم وقتله بني أمية.

وتلك الحروب العظام بالتأويل، ثم خروج العلويين وقتلهم وحبسهم ونفيهم بالتأويل إلى أضعاف أضعاف ما ذكرنا من حوادث الإسلام التي جرها التأويل... وما ضرب مالك بالسياط وطيف به إلا بالتأويل، ولا ضرب الإمام أحمد بالسياط وطلب قتله إلا بالتأويل، ولا قتل أحمد بن نصر الخزاعي إلا بالتأويل، ولا جرى على نعيم بن حماد الخزاعي ما جرى وتوجع أهل الإسلام لمصابه إلا بالتأويل، ولا جرى على محمد بن إسماعيل البخاري ما جرى ونفى وأخرج من بلده إلا بالتأويل، ولا قتل من قتل من خلفاء الإسلام وملوكه إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام عبدالله أبي إسماعيل الأنصاري ما جرى وطلب قتله بضعة وعشرين مرة إلا بالتأويل، ولا جرى على أئمة السنة والحديث ما جرى حين حبسوا وشردوا وأخرجوا من ديارهم إلا بالتأويل، ولا جرى على شيخ الإسلام ابن تيمية ما جرى من خصومه بالسجن وطلب قتله أكثر من عشرين مرة إلا بالتأويل.

فقاتل الله التأويل الباطل وأخذ حق دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم، فماذا هدموا من معاقل الإسلام، وهدوا من أركانه، وقلعوا من

قواعـده، ولقـد تركـوه أرق من الثوب الخلـق البالي الـذي تطاولت عليه السنون، وتوالت عليه الأهوية والرياح، ولو بسطنا هذا الفصل وحده ما جنـاه التأويل على الأديان والشرائع وخراب العالم، لقام منه عدة أسـفار، وإنما نبهنا تنبيهاً يعلم به العاقل ما وراءه، وبالله التوفيق)[1] ا.هـ.

وقد يقول قائل: وهل التأويل مذموم بإطلاق؟ وهل جميع صوره مردودة وفاسـدة؟ والجواب على هذا أن أغلب وأكثر صور التأويل فاسـدة ومردودة، لأنها في حقيقتها تحريف للكلم عن مواضعه بلا دليل من كتاب وسنة.

يقـول شـيخ الإسـلام رحمه الله: (هـذا التأويـل في كثير مـن المواضع -أو أكثرهـا وعامتها- مـن باب تحريف الكلم عن مواضعـه من جنس تأويلات القرامطـة والباطنية، وهـذا هو التأويل الذي اتفق سـلف الأمة وأئمتها على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ورموا في أثرهم بالشهب، وقد صنف الإمام أحمد كتاباً في الرد على هؤلاء وسماه: «الرد على الجهمية والزنادقة»)[2].

أما التأويل المراد به في الكتاب والسـنة فهو مشـتق من معناه اللغوي الـذي هـو من قولـك: آل الشيء يؤول ومـآلاً: رجـع[3]. ولذلك جاءت استعمالات (التأويل) في الكتاب والسنة على عدة معانٍ:

الأول: بمعنـى التفسـير، وقد اسـتخدمه القدماء من علماء التفسـير كابـن جرير الطـبري رحمه الله فإنه كثيراً ما يقول: وتأويـل هذه الآية كذا أي

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٦٥، ٣٧٦ وما بعدها (باختصار).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٦٩).
(٣) «لسان العرب» (١/ ١٣٠).

تفسيرها. ذلك أن المفسر يراجع نفسه عند الشرح، ويبين معنى الآية وما تؤول إليه من المقاصد والمعاني، ومن ذلك دعاؤه ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما وقوله: «**اللَّهمَّ فَقهْهُ في الدينِ وعلّمه التأويل**»[1].

الثاني: ما يؤول إليه الأمر وما ورد في الكلام، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية [الأعراف:٥٣]. أي هل ينظرون إلا تحقيق ما أخبر الله ﷻ عنه من وقوع العذاب بهم يوم القيامة. عندئذ يقر الذين كذبوا به في الدنيا، ويقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

الثالث: تحقيق ما أمر الله ﷻ به، ومن ذلك ما صح في السنة عن عائشة رضي الله عنها أن قالت: (كان ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن**»)[2] أي يحقق ما أمره الله به في كتابه وذلك بعد نزول سورة النصر، وفيها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:٣].

هذه هي المعاني الشرعية للتأويل، وليس كما يفهمه أهل التحريف، ولكن قد يقال: إن بعض معاجم اللغة العربية وبعض كتب الأصول تذكر أن معنى التأويل: هو صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.

أشار إلى ذلك ابن منظور وابن الأثير وغيرهما، فكيف تزعمون أن العرب لا تفقه من كلامها هذا المعنى.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٧) وقال الأرناؤط: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٢) البخاري تفسير سورة النصر (٤٦٨٤)، مسلم (٤٨٤).

والجـواب: أن هـذا المعنى دخل إلى معاجـم اللغة العربيـة المتأخرة، نقلاً عن استعمالات الفقهاء والأصوليين، لا نقلاً عن كلام العرب الذي يحتـج به، يـدل على صحة هـذا القول: إن معاجـم اللغة العربيـة المتقدمة أمثال: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«مقاييس اللغة» لابن فارس، وهما مما دون في القرن الرابع الهجري لم يشـيرا إلى هـذا المعنى، الذي ذكره الفقهاء والأصوليون، مما يدل على أنه معنى اصطلاحي خاص بهم، فلا يجوز حمل ألفاظ القرآن عليه.

وعلى فرض أن هذا التأويل في لغة العرب هو هذا المعنى الذي أورده الأصوليـون، فـإن المؤولين للنصـوص لم يلتزموا بالـشروط التي وضعها الأصوليـون لجـواز التأويـل، ومـن أهمهـا أن يكـون معـه دليـل صحيح وصريـح يوجـب صرف اللفظ عـن ظاهره، وأن يسـلم هـذا الدليل عن المعـارض، فـإذا قام دليل مـن القرآن والسـنة الصحيحة عـلى أن الحقيقة مراده امتنع تركها[1].

ولذلـك فـإن صنيعهـم هـذا لا ينفـي عنهـم التحريف لعـدم توفر الـشروط. ومـن أخطـر مـا يوقـع بعـض المتأولـة في تأويلاتهم الفاسـدة اعتمادهم على ما يسـمى بتحقيق المصالح ودفع المفاسـد، فيعارضون بهذه القواعد نصوص الكتاب والسـنة، وينزلونها بتأويلهم الفاسـد على وقائع وحـوادث بأهوائهـم، دون اعتبـار لقواعـد الترجيـح ودون النظر في فقه الموازنات، وهذا يكثر في المظالم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم،

(١) انظر: «التأويل خطورته وآثاره» د. عمر الأشقر في موقع (شبكة الدفاع عن السنة).

كما هو الحال عند أرباب السياسة الذين يقدمون السياسة على الشرع عند التعارض، وذلك كما قدم أهل الكلام عقولهم وأهواءهم على نصوص الكتاب والسنة.

أسباب الوقوع في التأويل الفاسد:

إذا تبين فساد التأويل وجنايته على الدين والنفوس والأموال والعقول والأعراض، فلماذا وقع فيه من وقع من بعض أهل العلم أو بعض الولاة، وما الذي سهل على النفوس قبوله مع مخالفته للبيان والعقل والفطرة والنقل؟

يذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أسباباً لقبوله قد وضعها أرباب التأويل الفاسد ومهدوا له بذلك، فمن هذه الأسباب التي ذكرها رحمه الله:

السبب الأول: أن يأتي به صاحبه مموهاً مزخرف الألفاظ ملفق المعاني مكسواً حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهل بحقيقته. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢]، فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به

الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به، لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك.

السبب الثاني: أن يخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة، تنفر عنها القلوب، وتنبو عنها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولاً إلى القلوب وأشدها نفرة عنها، فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ فيسمى التدين ثقالة، وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين سوء خلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله والحمية لدينه فتنة وشرًا وفضولاً، فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل، فيسمون إثبات صفات الكمال لله تجسيماً وتشبيهاً وتمثيلاً، ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيباً، ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزاً وتجسيماً، ويسمون العرش حيزاً وجهة، ويسمون الصفات أعراضاً، والأفعال حوادث، والوجه واليدين أبعاضاً، والحكم والغايات التي يفعل لأجلها أغراضاً. فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة

الشنيعة، تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه، فقالوا للأغمار والأغفال: اعلموا أن ربكم منزه عن الأعراض والأغراض والأبعاض والجهات والتركيب والتجسيم والتشبيه، فلم يشك أحد لله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الرب تعالى عن ذلك... فلما صرحوا لهم بنفي ذلك: بقي السامع متحيرًا أعظم حيرة بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له جميع رسله وسلف الأمة بعدهم، وبين إثباتها وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقاه عنهم، فمن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم من فر إلى التعطيل، ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله، وكشف زيف هذه الألفاظ وبين زخرفها وزغلها، وأنها ألفاظ مموهة بمنزلة طعام طيب الرائحة في إناء حسن اللون والشكل ولكن الطعام مسموم، فقالوا ما قاله إمام أهل السنة باتفاق أهل السنة أحمد بن حنبل: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين. ولما أراد المتأولون المعطلون تمام هذا الغرض، اخترعوا لأهل السنة الألقاب القبيحة، فسموهم حشوية ونوابت ونواصب ومجبرة ومجسمة ومشبهة ونحو ذلك، فتولد من تسميتهم لصفات الرب تعالى وأفعاله ووجهه ويديه وحكمته بتلك الأسماء، وتلقيب من أثبتها له بهذه الألقاب لعنة أهل الإثبات والسنة وتبديعهم وتضليلهم وتكفيرهم وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها[1].

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة، فها هم سلف هؤلاء المبتدعة في واقعنا المعاصر من ليبراليين وعلمانيين ومرجئة وصوفية يرمون الدعاة والمجاهدين من أهل السنة بالمتحجرين والظلاميين والإرهابيين ودعاة فتنة وخوارج.

السبب الثالث: أن يعزو المتأول تأويله وبدعته إلى جليل القدر نبيه الذكر من العقلاء، أو من آل البيت النبوي، أو من حل له في الأمة ثناء جميل ولسان صدق؛ ليحليه بذلك في قلوب الأغمار والجهال، فإن من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه، وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم، حتى إنهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله، ويقولون هو أعلم بالله ورسوله منا.. وهذا ميراث بالتعصب من الذين عارضوا دين الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، فإنهم لحسن ظنهم بهم وتعظيمهم لهم آثروا ما كانوا عليه على ما جاءتهم به الرسل، وكانوا أعظم في صدورهم من أن يخالفوهم، ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كل مقلد لمن يعظمه فيما خالف فيه الحق إلى يوم القيامة.

السبب الرابع: أن يكون ذلك التأويل قد قبله ورضيه مبرز في صناعة من الصناعات أو علم من العلوم الدقيقة أو الجليلة، فيعلو له بما برز به ذكر في الناس ويشتهر له به صيت، فإذا سمع الغمر الجاهل بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له أحسن الظن به، وارتضاه مذهباً لنفسه، ورضي من قبله إماماً له، وقال: إنه لم يكن ليختار مع جودة قريحته وذكائه وصحة ذهنه ومهارته بصناعته وتبريزه فيها على بني جنسه، إلا الأصوب والأفضل من الاعتقادات والأرشد والأمثل من التأويلات وأين يقع اختياري من اختياره، فرضيت لنفسي ما رضيه لنفسه، فإن عقله وذهنه وقريحته إنما تدله على الصواب، كما دلته على ما خفي عن غيره من صناعته وعلمه.

وهـذه الآفة قد هلك بهـا أمم لا يحصيهم إلا الله، رأوا الفلاسـفة قد بـرزوا في العلوم الرياضية والطبية، واسـتنبطوا بعقولهم وجودة قرائحهم ما عجـز أكثر الناس عن تعلمه، فقالوا: للعلـوم الإلهية والمعارف الربانية أسـوة بذلك... وما عرف أصحاب هذه الشـبهة أن الله سبحانه قد يعطي أجهل الناس به وبأسـمائه وصفاته وشرعه من الحذق في العلوم الرياضية والصنائع العجيبة ما تعجز عنه عقول أعلم الناس به ومعارفهم، وقد قال النبي ﷺ: «**أنتم أعلم بدنياكم**»[1].

السبب الخامس: الإغراب على النفوس بما لم تكن عارفة به من المعاني الغريبة، التي إذا ظفر الذهن بإدراكها ناله لذة من جنس لذة الظفر بالصيد الوحـشي الـذي لم يكن يطمع فيه، وهذا شـأن النفوس فإنهـا موكلة بكل غريب تستحسـنه وتؤثـره وتنافس فيه.. ثم اختاروا لتلـك المعاني الغريبة ألفاظا أغرب منها، وألقوها في مسامع الناس، وقالوا: إن المعارف العقلية والعلـوم اليقينيـة تحتهـا، فتحركـت النفـوس لطلـب فهم تلـك الألفاظ الغريبـة، وإدراك تلك المعاني. واتفـق أن صادفت قلوباً خاوية من حقائق الإيـمان ومـا بعـث الله به رسـوله، فتمكنت منهـا فعز على أطبـاء الأديان استنقاذها منها، وقد تحكمت فيها..

السـبب السـادس: تقديـم مقدمات قبـل التأويل تكـون كالأطناب والأوتـاد لفسـطاطه، **فمنهـا**: ذم أصحـاب الظواهـر وعيبهـم والإزراء بهم، وأنهم قوم جهال، لا عقول لهم، وإنما هم أصحاب ظواهر سـمعية، وينقلون من مثالبهم وبلههم ما بعضه صدق وأكثره كذب.

---

(١) مسلم بلفظ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» (٢٣٦٣).

ومنها: قولهم: إن الخطاب بالمجاز والاستعارة أعذب وأوفق وألطف، وقد قال بعض أئمة النحاة: أكثر اللغة مجاز، فإذا كان أكثر اللغة مجازاً سهل على النفوس أنواع التأويلات، فقل ما شئت، وأوِّل ما شئت، وأنزل عن الحقيقة ولا يضرك أي مجاز ركبته.

ومنها: قولهم: إن أدلة القرآن والسنة أدلة لفظية، وهي لا تفيد علماً ولا يقيناً، والعلم إنما يستفاد من أدلة المعقول وقواعد المنطق.

ومنها: قولهم: إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل على النقل، فهذه المقدمات ونحوها هي أساس التأويل، فإذا انضمت هذه الأسباب بعضها إلى بعض، وتقاربت فيا محنة القرآن والسنة، وقد سلكا في قلوب قد تمكنت منها هذه الأسباب، فهنالك التأويل والتحريف والتبديل والإضمار والإجمال)[1].

وبعد أن بين الإمام ابن القيم رحمه الله هذه الأسباب التي أدت إلى الوقوع في التأويل، ذكر الأسباب الجالبة له التي ساعدت على انتشاره، فقال رحمه الله:

(وهي أربعة أسباب: اثنان من المتكلم، واثنان من السامع.

فالسببان اللذان من المتكلم:

- إما من نقصان بيانه، وإما سوء قصده.

واللذان من السامع:

- إما سوء فهمه، وإما سوء قصده.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٣٦-٤٥١) (باختصار).

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة انتفى التأويل الباطل، وإذا وجدت أو بعضها وقع التأويل.. فإذا كان المتكلم قد وفى البيان حقه، وقصد إفهام المخاطب وإيضاح المعنى له وإحضاره في ذهنه، فوافق من المخاطب معرفة بلغة المتكلم وعرفه المطرد في خطابه، وعلم من كمال نصحه أنه لا يقصد بخطابه التعمية والإلغاز، لم يخف عليه معنى كلامه، ولم يقع في قلبه شك في معرفة مراده.

وإن كان المتكلم قد قصر في بيانه وخاطب السامع بألفاظ مجملة تحتمل عدة معان، ولم يتبين له ما أراده منها، فإن كان عاجزاً أتي السامع من عجزه لا من قصده، وإن كان قادراً عليه ولم يفعله حيث ينبغي فعله أتي السامع من سوء قصده..

ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أولى أن يصار إليه، مما فهمه من بعدهم، فانضاف حسن قصدهم إلى حسن فهمهم، فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله واليوم الآخر، ولا يحفظ عنهم في ذلك خلاف لا مشهور ولا شاذ، فلما حدث بعد انقضاء عصرهم **من ساء فهمه وساء قصده**، وقعوا في أنواع من التأويل بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق ومعاداة لأهله واستحلال ما حرم الله منهم.

وإذا تأملت أصول المذاهب الفاسدة رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسة في رياسة أو مال أو توصل إلى عرض من أعراض الدنيا تخطبه الآمال وتتبعه الهمم وتشرئب إليه

النفـوس، فيتفق للعبد شـبهة وشـهوة، وهما أصل كل فسـاد ومنشـأ كل تأويـل باطل، وقد ذم الله -سـبحانه- من اتبع الظـن وما تهوى الأنفس، فالظن الشبهات، وما تهوى الأنفس الشهوات)[1].

* * *

بعد هاتين المقدمتين عن الشبهات والتأويل الفاسد وآثارهما الخطيرة في لبـس الحـق بالباطل والتشـويش عـلى إيمان النـاس وأخلاقهـم، نعود إلى أصـل الموضوع، ألا وهـو دور أهل العلم والدعـاة إلى المنهج الحق في التصدي لهذه الشبهات والتأويلات الفاسدة، وأن هذا ضرب من ضروب الجهاد في سـبيل الله ﷻ لا يقل إن لم يفق جهاد الكفار باليد والسـنان، لأن الجهاد بالسـنان يكفي فيه النية الصادقة والدربة على فنون القتال؛ ليكون صالحـاً وفاعـلاً في هذا النوع من الجهـاد، أما الجهاد بالبيـان والحجة ورد تأويلات المبطلين والمشـبهين فلا يصلح له إلا من آتاه الله العلم والبصيرة النافذة في الدين مع التقوى واليقين.

وقد سـبق في أول المبحث السـابق ذكر بعض مظاهر الغزو الفكري، وإثـارة الغبـش حـول العقيـدة الصحيحة، عقيـدة أهل السـنة والجماعة، وأساليب هذا الغزو في التشويش على أصول الدين وأحكامه وعلى تاريخ المسـلمين. ويحسـن هنا ذكر بعض الـردود على هذه المظاهر مشـاركة في جهاد البيان، وهي على سبيل المثال في جهاد المبطلين لا على سبيل الحصر.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٥٠٠-٥١٠) (باختصار).

أولاً: التصدي للهجوم على عقيدة الولاء والبراء وإزالة الشبهات المثارة حولها

وقد سبق الإشارة إلى أهم هذه الصور التي يسعى فيها أعداء الدين بتسليط معاولهم لهدم هذا السور المنيع الذي حفظ الله ﷻ به هوية المسلمين وولاء بعضهم لبعض، وتميزهم عن الكفار طيلة التاريخ الإسلامي، ألا وهو سور الولاء والبراء، ومن أهم هذه الصور:

أ- **قولهم: إن الولاء والبراء يتعارض مع التسامح الديني والإخاء،** وعليه ينبغي أن نلغي مصطلح (المسلم والكافر)، ونستبدله (بنحن والآخر)!! وعلينا أن نبدي تسامحنا مع الآخر. ولا يخفى تهافت هذه الشبهة وسرعان ما تذوب وتضمحل عند الرجوع إلى كتاب الله ﷻ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ويكفينا في ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] وقوله تعالى: الآية ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ...﴾ الآية [المجادلة:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ...﴾ الآية [الممتحنة:٤]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ...﴾ الآية [المائدة:٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ...﴾

الآيـة [الحشر:٢]، وختاماً قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

فهـل بعد هذه الآيـات البيّنـات الواضحات عذر لمن ينـادي بمحبة الكافر والتسامح الديني معه، وعدم تسميته بالكافر؟ ولمزيد من التفصيل أذكر فيما يلي بعد المؤاخذات العقيدة في هذا الطرح:

أولاً: العـدول عن الأسـماء والمصطلحات الشرعيـة التي جاءت في كتـاب الله ﷻ وفي سـنة نبيه ﷺ إلى أسـماء ومصطلحـات بشرية غامضة، ونحاتات أفكار واهية، أفرزتها عقول مهزومة، فاستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتركت ما أسماه الله ﷻ من الأسماء المنطبقة على مسمياتها في كتابـه -سـبحانه وتعالى-، حيث قسـم النـاس إلى حزبـين: حزب الله المؤمنـين وحـزب الشـيطان الكافريـن، قـال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

فليس هناك (نحن والآخر) وإنما هناك (المسلمون والكافرون)، قال تعـالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحـج:٧٨]، وقـال تعـالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابـن:٢]، والآيات في ذكر الكفر والكافريـن كثـيرة جداً، جـاء ذكرها في ما يزيد عـلى ٣٥٢ موضعاً، فلماذا التحـرج مـن كلام الله ﷻ الـذي هو أحسـن الحديث وأصدقـه وأفصحه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

إن من يتحرج من كلام الله ﷻ وتسمياته، ويرتاح لكلام البشر ومصطلحاتهم ومسمياتهم يخشى عليه أن يكون تحت طائلة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

لقد نهى الله ﷻ نبيه ﷺ وأتباعه من بعده من أن يكون في الصدور حرج من الصدع بكل ما جاء في القرآن من أسماء وأحكام، وعقائد وقصص وأخبار، بل الواجب اتباعه، فقال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢].

وعند هذه الآية يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه؛ ارتفع به عنها ذلك الحرج، وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥][1] ا.هـ.

ويقول أيضاً في موطن آخر: (ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى، ثم ارض لنفسك بما تشاء)[2] ا.هـ.

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥١٨) (باختصار).

(٢) «الفوائد» (ص٩٠).

ثانياً: لو أن الأمر في استبدال (الآخر) بالكافر توقف عند الاستبدال اللفظي لكان الأمر أهون مع مخالفته لكلام الله ﷻ كما تبين، ولكن الخطورة في هذا الاستبدال يتجاوز اللفظ إلى الهزيمة النفسية أمام الآخر الكافر، وذلك بالدعوة إلى عدم الكراهية له، وإخفاء ظلمه، وعدوانه، وإرهابه، وكأنه مظلوم قد سلبت حقوقه!! ويشعر السامع من الذين يطرحون مصطلح (الآخر) بأنهم يعيشون تحت ظرف سياسي داخلي أو خارجي صور لهم الآخر، وكأنه مظلوم يريد من ينصره ممن ظلمه!

واعتمدوا في ذلك على نصوص في الكتاب والسنة تدعو إلى التسامح والبر والقسط مع الكفار، وحرفوها عن معانيها، وفصلوها عن مناسباتها التي نزلت فيها، ونسوا أو تناسوا الآيات التي فيها وجوب عداوة الكافر والبراءة منه، وجهاده حتى يكون الدين كله لله، فالبر والقسط شيء، والموالاة والنصرة شيءٌ آخر.

(إن رفع شعار التسامح والصفح مع الكفار اليوم ليوضع في غير موضعه، لأن في ذلك خلط وتلبيس وتضليل، حيث تسمى الموالاة والمداهنة للكفار تسامحاً ومداراة، وفرق كبير بين المداراة والمداهنة التي فيها تصحيح مذاهب الكفار أو السكوت عليها، وإظهار المحبة لهم ونسيان عداوتهم وحربهم للمسلمين في القديم والحديث، إن الذين كفروا من أهل الكتاب هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً، وأهل الكتاب، هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم

الذين شردوا المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان، في الحبشة والصومال وأرتيرية، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان، وهم الذين قتلوا أهلنا ونساءنا وأطفالنا في أفغانستان والعراق، ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر، ندفع به الإلحاد والإرهاب، إن هؤلاء لا يتدبرون القرآن الكريم، وإلا لما اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام بدعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان، كما يخطئون في فهم معنى التسامح، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي، إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم، بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام، ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً -ولو طفيفاً- هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم، وهو يقرر ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١]، وفي القرآن كلمة الفصل ولا على المسلم من تميع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين)[1].

ب- الدعوة إلى وحدة الأديان والتقارب بينها والتواد بين أهلها:

إن من الفتن الخطيرة التي ترقق ما قبلها، والتي كانت تطرح ما بين الفينة والأخرى، ولكنها اليوم تطرح بقوة وكثافة أكثر من أي وقت مضى، فتنة الدعوة إلى الحوار بين الأديان والتقارب بينها، حيث تعقد لها الندوات والمؤتمرات، ويشعر المراقب لهذه الفتنة ومن يتولى كبرها أنها تطرح بصورة تتسم بالكيد والمكر والتلبيس، ويتولى الإعلام بشتى وسائله الدعوة لها وتزيينها للناس بشبهات باطلة، يخشى أن تنطلي على كثير من جهلة المسلمين إن لم يجدوا من يبين لهم حقيقة هذه الدعوة الخبيثة، ويكشف عوارها وزيفها وضلالها.

ومع خطورة هذه الدعوة ومساسها بثوابت هذا الدين وأصوله، إلا أن من انبرى لكشف حقيقة هذه الدعوة في هذه الأيام هم قلة من الدعاة والعلماء من أمثال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في رسالته القيمة «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان»، والشيخ عبدالعزيز آل عبد اللطيف في كتابه «نواقض الإيمان القولية والعملية». و الحوار الذي أجراه موقع شبكة نور الإسلام مع الشيخ عبدالعزيز الطريفي، والرسالة العلمية التي كتبها الشيخ أحمد القاضي بعنوان: «دعوة التقريب بين الأديان». فجزاهم الله خيراً وبارك في جهودهم.

(١) انظر: (طريق الدعوة) أحمد فايز (بشيء من التصرف والاختصار).

ومع ما في ردودهم من القوة والشمول، إلا أن الأمر من الخطورة بحيث يحتاج إلى مزيد من الطرح والفضح والتكثيف في الوسائل المتاحة المتنوعة التي تصل إلى جميع شرائح الناس، لعلهم يفقهون حقيقة هذه الدعوة وخطرها وضلالها وبطلانها.

وإسهاماً في مدافعة هذه الدعوة الباطلة أكتب هذه الوقفات السريعة، مستفيداً ممن سبقني من المشايخ الكرام، أسأل الله ﷻ في ذلك الهدى والسداد:

الوقفة الأولى: (دين الله الحق واحد وليس عدة أديان)

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال -سبحانه-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦]. هذا كلام الله، ومن

أصدق من الله حديثاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥]. فهل بعد هذا البيان من بيان في أن دين الله الحق واحد، وهو الإسلام وليس عدة أديان، وهل يجوز للمسلم وهو يقرأ ويسمع هذه الآيات البينات المحكمات أن يقبل فكرة التقارب بين الأديان أو التحاور معها على أساس الندية والاعتراف بها؟!

إن دين الله الحق واحد، وليس هناك شيء اسمه الأديان السماوية أو الإبراهيمية؛ لأن دين الأنبياء جميعاً واحد هو الإسلام، قال ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ**» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ**»[1]. فدين إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- هو الإسلام لا غير: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وقال سبحانه عن عيسى -عليه السلام- وحواريه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

واللافت في جل الآيات السابقة أنها في سورة آل عمران، وقد نزلت في الحوار مع نصارى نجران، حيث كان الحوار صريحاً حاسماً، وذلك بإعلان البراءة من دين النصارى الوثني المحرف، ودعوتهم إلى ترك

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (٢٣٧٥).

كفرهم وشركهم، ودعوتهم إلى الدخول في دين الإسلام القائم على عبادة الله وحده وتوحيده والبراءة من الشرك وأهله.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (والمقصود أن كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه. قال أبو العالية: رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله، وتركوا دين إبراهيم)[1]. فأين هذا من الدعوة الباطلة التي تطرح اليوم بقبول دين اليهود والنصارى أو عدم التعرض له بالنقد والتضليل والبراءة، بل والتقارب معه بحجة محاربة الإلحاد، وفي نشر السلام والتسامح والعدل!!

وسبحان الله العظيم كيف يقترب فضلاً عن أن يتحد شيئان متضادان. كيف يجتمع التوحيد القائم على عبادة الله وحده لا شريك له مع الشرك القائم على عبادة غير الله، وكيف يجتمع من يقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] مع من يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، ومع من يقول: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ومع من يقول ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً، كيف يجتمع الموحد ويتقارب مع من يقول الله ﷻ عنه وعن شناعة معتقده: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٧٢).

﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٥]، إن المتضادين لا يجتمعان أبداً لا في عالم الجمادات ولا في عالم الحيوانات إلا على وجه المغالبة، حتى يذوب أحد المتضادين في الآخر، وإلا فإنهما حسب السنن الكونية سيبقيان متنافرين، لا يلتقي أحدهما بالآخر، إلا أن يلتقي الضب بالحوت.

الوقفة الثانية: (متى يكون الحوار مع الكفار مقبولاً؟)

إذا تبين أن فكرة الوحدة أو التقارب بين الإسلام والكفر مستحيلة عقلاً وشرعاً، وإن وجد من يقبلها فإما أن يكون جاهلاً لا يدري ما معنى التوحيد، ولا ما هو الشرك؟ أو يكون عالماً بذلك لكنه ماكر مغرض يريد هدم الإسلام ونشر الكفر.

إذا تبين لنا ذلك فسيبقى أمامنا سؤال مفاده: متى يكون الحوار مع الكفار مقبولاً؟

والجواب -والحمد لله- واضح وجلي، قد بينه الله ﷻ في كتابه الكريم، وذلك أن الصورة المقبولة من الحوار مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، هو دعوتهم إلى التوحيد ودخولهم في الإسلام واتباعهم لمحمد ﷺ، وترك ما هم عليه، وإن رفضوا، فهم كفار نتبرأ منهم ومن كفرهم ونحذرهم ولا نظلمهم. وقد سبق في الوقفة السابقة سرد بعض الآيات التي فيها محاورة أهل الكتاب في بيان شركهم ودعوتهم إلى التوحيد، وأخص منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، وصورة أخرى للحوار مع الكفار في حالة القتال معهم، سواء في جهاد الطلب ودعوتهم قبل القتال إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، أو كان في جهاد الدفع في حالة ضعف المسلمين في التفاوض معهم في دفعهم عن ديار المسلمين بهدنة، أو صلح أو نحو ذلك، وكل هذه المحاورات تتم دون التنازل عن عقيدة التوحيد أو الاستحياء من طرحها، ودون تحسين دين الكفار أو قبوله. وهذه الصورة من الحوار مرفوضة أصلاً عند الكفار ولا يقبلون بها. أما الصورة المرفوضة من الحوار مع الكفار في دين الإسلام التي يدعو إليها الكفار، فهي التي تطرح هذه الأيام، وتعقد لها الندوات والمؤتمرات. والتي يراد منها أن تكون طريقاً إلى التقارب مع أديانهم الباطلة والسكوت عن كفرهم وإبطال عقيدة الولاء والبراء من ديننا، فلا براءة من المشركين ولا عداوة ولا كره للكافرين. كل ذلك باسم الحوار والدعوة إلى زمالة الأديان، ونشر السلام وبث التسامح معهم.

الوقفة الثالثة: (أهداف هذه الدعوة)

الجدير بالذكر أن الغرب اليهودي الصليبي هو من وراء هذه الأطروحات الماكرة، وقد تشربها بعض المسلمين إما جاهلاً بحقيقتها أو خبثاً ومكراً ونفاقاً. ويمكن ذكر بعض أهداف الحوار بين الأديان التي يسعى إليها الغرب الكافر وذلك فيما يلي:

١- باعث الصد عن سبيل الله ﷻ وبخاصة دين الإسلام الذي رأى الغرب أن أبناءه يدخلون في الإسلام زرافات ووحداناً، فأرادوا التلبيس على شعوبهم بأن الفروق بين الأديان فروق شكلية، كلها تؤدي إلى عبادة رب واحد، فلا حاجة للتغيير.

٢- باعث هدم أصول الدين الإسلامي وثوابته، وخاصة أصل الولاء والبراء الذي يقتضي تكفير الكافر وبغضه والبراءة منه ومن كفره وهذا غاية ما يسعون إليه في هذه الدعوات الماكرة، وبخاصة في هذه الأزمنة المتأخرة التي استيقظ فيها المسلمون، ورأوا صوراً صارخة من عداء الكفار وعدوانهم وحقدهم على الإسلام وأهله. ومن الشعائر التي أقضت مضاجع الكفار ووقفت شوكة في حلوقهم شعيرة الجهاد التي انبعثت في هذه الأمة قولاً وعملاً وذاق العدو الكافر الأمرين من ضربات المجاهدين. فجاءت هذه الدعوات الخبيثة لتدجن المسلمين وتبعدهم عن مقومات حياتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وجاءت لتجنيد كثير من حكام المسلمين وبعض المهزومين من المسلمين في مواجهة المجاهدين والمنادين بالبراءة من الكفار وبغضهم وعداوتهم.

٣- باعث التنصير حيث طرح مجلس الكنائس العالمي أن الحوار وسيلة مفيدة للتنصير، لأنه وسيلة لكشف معتقدات وحاجيات الآخر، وهي نقطة البداية الشرعية للتنصير.

٤- إسقاط جوهر الإسلام واستعلائه وظهوره وتميزه بجعل دين الإسلام المحكم المحفوظ من التحريف والتبديل في مرتبة متساوية مع غيره من كل دين محرف ممسوخ، بل مع العقائد الوثنية الأخرى.

٥- الاعتراف بأديانهم واحترام عقائدهم، وتجنب البحث في المسائل العقدية الفاصلة للحفاظ على استمرار الحوار.

٦- الدعوة إلى نسيان الماضي التاريخي والتخلص من آثاره، كالذي حصل من الصليبيين في حروبهم الصليبية، وما قاموا به من ظلم وتقتيل وتشريد للمسلمين. والدعوة إلى فتح صفحة جديدة بين الأديان يسودها السلام والعدل والتسامح بزعمهم. ولا يخفى على اللبيب خبث هذه الدعوة وما وراءها، ولكنها لا تنطلي على المسلم الواعي لعقيدته، الواعي لتاريخه، الواعي لواقعه المعاصر، الذي يمارس فيه هؤلاء الكفار الذين يدعوننا إلى الحوار شتى صور القتل والتعذيب والتشريد في بلدان المسلمين، ويكفينا ما يدور الآن في العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال من الغرب الصليبي اليهودي، الذي تتولى كبره أمريكا الطاغية الكافرة.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة بين المسلمين والكفار بحجة التسامح والتقريب والحوار بين أهل الأديان يخطئون في فهم دين الله الحق، وفهم الأديان المخالفة كما يخطئون فهم معنى التسامح وفهم الواقع الأليم، فالغرب الكافر يريد من المسلمين أن يتسامحوا من طرف واحد، ويتقبلوا العدوان عليهم، والتقتيل والاحتلال، ويستسلموا للأعداء، أما هو فلا حسيب على عدوانه وحقده، لأنه جاء ينشر الحرية والعدل والديمقراطية بزعمه، ومع ذلك نجد من بني جلدتنا من يحسن الظن بعدونا الكافر، ولا ندري هل هذا جهلاً منه أو خبثاً ومكراً!؟

الوقفة الرابعة: (المخرج من هذه الفتنة)

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ويقول الرسول ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ**»(١).

وقوله ﷺ في حديث الفتن التي يرقق بعضها بعضاً قوله: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**».

هذا هو المنقذ من هذه الفتنة ومن غيرها: الاعتصام بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ والسير على هديهما، وفي كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ من الأدلة التي تدحض هذه الفتن وغيرها، وذلك في بيان حقيقة الإيمان بالله ﷻ وتوحيده وبيان سبيل الكافرين، وتفنيد عقائدهم الباطلة ما يكفي ويشفي لمن تدبرهما، وجعلهما المصدر الوحيد لفهمه وحكمه وتحاكمه وفي ولائه وفي برائه.

والإيمان الحق بالله ﷻ واليوم الآخر هما ثمرة من ثمار الاعتصام بالكتاب والسنة، والإيمان بالله الحق واليوم الآخر هما العاصمان بإذن الله ﷻ من الوقوع في فتن الاعتقادات والأقوال والأعمال، كما جاء في حديث الفتن

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» وذكره الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١/ ٢٧٧) وقال: رواه الحاكم (١/ ٩٣) بسند حسن فيقوى به.

السالف الذكر: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**»(١).

هذا هو المتعين على كل مسلم يريد لنفسه النجاة. كما أن المتعين على علماء السنة في ديار المسلمين بيان الحق للناس، وربطهم بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف الصالح رضي الله عنهم، وبيان ما يضاد ذلك من سبيل الكافرين والمنافقين والمبتدعين. ويتأكد هذا الواجب في زماننا اليوم الذي كثرت فيه الفتن، وأجلب فيه المضلون والملبسون الصادون عن سبيل الله بخيلهم ورجلهم، يريدون تبديل الدين وزعزعة التوحيد في قلوب أهله، فإن لم ينفر العلماء وطلاب العلم في رد هذه الفتن المستطيرة تكن فتنة في الأرض وفساد كبير على الناس في دينهم وإثم كبير على الساكت من أهل العلم قال الله -عز وجل: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿**لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة:٦٣]، أي لبئس ما يصنعه أهل العلم من الربانيين والأحبار بسكوتهم وعدم نهيهم الناس عن الإثم، إن بيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين للناس هو ضرب من الجهاد في سبيل الله فما أعظمه من جهاد.

---

(١) مسلم (١٨٤٤).

ج- الغلو في رابطة الوطنية وتقديمها على رابطة الدين:

إن من أخطر المعاول التي تستخدم اليوم لهدم عقيدة الولاء والبراء معول (الوطنية) الذي يراد منه إحلال رابطة الوطن محل رابطة التوحيد، وذلك في عقد الولاء والبراء بين أبناء المجتمع المسلم على أساسها.

إن حب الوطن ومكان المنشأ والحنين إليه طبع جبلي فطري مغروس في النفوس، ولشدة مفارقة الأوطان على النفوس رتب الله ﷻ عليه الثواب العظيم للمهاجرين في سبيله المفارقين لأوطانهم من أجله.

يقول الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨].

وها هو بلال رضي الله عنه يحن إلى وطنه الأصلي مكة بعد أن هاجر منها، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة... بوادٍ وحولي إذخر وجليل

فهذا الحب والحنين لا ضير فيه ولا لوم، وليس نزاعنا مع دعاة الوطنية في هذه المسألة.

إنما اللوم والانحراف والنزاع في جعل الانتماء إلى الوطن الواحد هو معيار الولاء والمحبة والنصرة لكل من يعيش تحت مظلة الوطن الواحد، ولو كان مشركاً أو منافقاً، وجعله هو المقدم والمكرم على من ليس من أبناء الوطن ولو كان مسلماً صالحاً تقياً، إن هذا هو الانحراف والعودة

إلى موازين الجاهلية ومعاييرها في الولاء والنصرة، وفي العداوة والبراء، نعم إذا كان المواطن موحداً صالحاً خيراً فهذا نور على نور، ولا تثريب على من وجد ميلاً أكثر إلى الموحد الصالح من قرابته أو قبيلته أو من أبناء وطنه. أما أن يجد ميلاً ومحبة وتآخياً مع أهل الشرك والنفاق، ويجعله يسكت عن شركهم ونفاقهم؛ لأنهم من أبناء وطنه، فهذا هو المرفوض في ميزان الله ﷻ. قال الله ﷻ عن نوح -عليه السلام- حينما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود:٤٦].

إنه لا يخفى ما في (**الوطنية**) بالمفهوم الجاهلي من هدم لعقيدة الولاء والبراء في هذا الدين، فكم في الوطن الواحد من العقائد الباطلة الكفرية التي يخرج صاحبها من الإسلام، كمن يعبد غير الله ﷻ ويستغيث به ويدعي أن غير الله تعالى يعلم الغيب كغلاة الشيعة والصوفية، وكم في الوطن الواحد من يكفر أصحاب محمد ﷺ ويعاديهم، ويقذف نساء النبي ﷺ العفيفات الطاهرات، وكم في الوطن الواحد من المنافقين الذين يبطنون العداء للإسلام وأهله، ويوالون الغرب وأهله، فهل هؤلاء هم منا ونحن منهم؛ لأننا وإياهم نعيش في وطن واحد؟ إننا بهذا الفهم نعود إلى صورة من صور الجاهلية الأولى، التي جاء هذا الدين للقضاء عليها، وجعل رابطة العقيدة والإيمان فوق كل رابطة، يعادى من أجلها، ويوالى من أجلها، ويحب من أجلها، ويبغض من أجلها.

قال ﷺ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ؛ فَأَعْضُوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**».

فسمع أبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان! فقال: اعضض إير أبيك، فقال: يا أبا المنذر! ما كنت فاحشاً، فقال: بهذا أمرنا رسول الله ﷺ[1].

ويشرح شيخ الإسلام هذا الحديث، فيقول: (ومعنى قوله: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ**» يعني يتعزى بعزائهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يا لقيس! يا ليمن! ويا لهلال! ويا لأسد، فمن تعصب لأهل بلدته، أو مذهبه، أو طريقته، أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله)[2].

وقد وقفت على دراسة مهمة يتحدث فيها كاتبها د. أحمد محمود السيد عن فقه المواطنة وأصولها الغربية في الجاهلية المعاصرة، ونظراً لأهميتها وعلاقتها بموضوعنا أنقل بعض ما ورد فيها، حيث يقول وفقه الله تعالى: (في هذه الأيام يتردد لفظ المواطنة على ألسنة المهتمين بالعمل السياسي ودعاة العلمانية وأنصار المنهج العلماني بوجه عام، ولا غضاضة في هذا ولا عجب، حتى وإن ادعى هؤلاء أنه لا يتعارض مع الإسلام، أو أن الإسلام قد عمل به وأسسه، بل العجب كل العجب أن ينبري بعض الشيوخ وعلماء الشريعة لإثبات أنه مبدأ إسلامي أصيل، وأنه مضمون هذا المفهوم مماثل لما جاء به الشرع الحنيف!

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٢٢).

والأدهى من ذلك أن السيناريو نفسه يتكرر كما حدث في الستينيات مع الاشتراكية، هناك من كتب عن «المواطنة في الإسلام»، و«المواطنة عند رسول الله»، و«المواطنة في الشريعة الإسلامية»، و«المواطنة مبدأ إسلامي أصيل»، و«مبدأ المواطنة أهم دروس الهجرة»، وهناك من استدل بآيات قرآنية وتفسيرات، حاول أن يلوي فيها أعناق الآيات، لكي تعبر عن مفهوم المواطنة الغربي، مؤكداً تطابقها مع تفسيرات القرآن!

تعالوا نتفهم معنى المواطنة في دولة المنشأ؛ لنعرف إن كانت تصلح كمبدأ إسلامي أم لا..

يعرف قاموس المصطلحات السياسية «المواطنة» بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية، تقوم بين شخص طبيعي، وبين مجتمع سياسي (الدولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدد هذه العلاقة بين الشخص والدولة بالمساواة أمام القانون «الوضعي» في ظل هيمنة الدولة القومية.

ويعبر مفهوم المواطنة بمعناه الحديث عن تطور شديد التعقيد صاغته أوربا الغربية في القرن التاسع عشر، خلال عمليات تاريخية واجتماعية وسياسية، تم فيها الانتقال من الحق الإلهي المقدس إلى حق المواطن، ومن هيمنة الكنيسة إلى هيمنة الدولة..

فالمواطنة كمبدأ سياسي لا تعمل بعيداً عن النظرية السياسية الغربية التي صاغتها، ولا يمكن أن تقطع من سياقها ليتم تفعيلها في نظام آخر

مختلف عقائدياً واجتماعياً وتاريخياً، فالنظام السياسي الإسلامي يقوم على مجموعة مبادئ تعمل معاً لتحقيق مبادئ الإسلام وهديه من خلال منظومة من الآليات مثل: الإمامة - أهل الحل والعقد - الشورى - الخلافة - الخ.. والتمييز فيها يكون للمسلم، فلا يستوي المؤمنون والكافرون، وإذا كان معيار التفضيل هو التقوى، كما في الحديث «**لاَ فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِيٍّ وَلا عَجَمِيٍّ إلاَّ بِالتَّقْوَى**»[1]، فإن هذه التقوى معناها الإسلام والإيمان الخالص، وهذا ليس معناه ظلم المخالفين في العقيدة، لكنهم في ظل الدولة الإسلامية يتعاملون من خلال العهود والمواثيق، التي تحفظ لهم حقوقهم، وتحفظ للدولة الإسلامية ما تفرضه عليهم من واجبات...

ولكن تأبى نفوس الذين تشربوا فكر الغرب ورضعوا من علمانيته، إلا أن يستبعدوا الإسلام من طريق سياسة الدنيا، ويستكثروا على أتباعه أن يحكموا بهديه ومبادئه، فتحاول هذه الفئة أن تلوي أعناق الآيات، وتغير في مضمون التفسير؛ لتوافق هواهم، وتوظف من منحهم صفة (المفكر الإسلامي)، كي يؤكدوا: أن الإسلام لا يتعارض مع تلك المصطلحات، بل يؤسس لها ويطبقها، وتباركها شهادات لبعض الشيوخ والعلماء، متصورة أنها بهذا التلبيس على الناس تكون قد ضمنت غسيل عقولهم وتحويل انتمائهم لهذا الفكر.. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦][2] ا.هـ.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩).

(٢) انظر: موقع أنا المسلم.

هـذه هي حقيقة الوطنية وملابسـات نشـأتها، وخطرهـا العظيم على عقيدة التوحيد والموالاة والمعادة فيه، فهل يسـوغ بعد ذلك لأحد أن يرفع سـيف الوطنية في وجه كل من يرفض أن يكون الوطن هو الأساس الذي يعقد عليه الولاء والبراء، بغض النظر عن عقائد هؤلاء المواطنين ونحلهم؟ هل يجوز أن تكون رابطة الوطن فوق رابطة التوحيد؟ وهل يجوز أن يتآخى ويتحاب الموحدون مع المشركين والكفار والمنافقين، ويسكت عن كفرهم ونفاقهم بحجة أنهم أبناء وطن واحد؟! وبحجة أن الانطلاق من التوحيد في الولاء والبراء يفرق الأمة ويذكي الفتن الطائفية فيها؟

إن هـذا هـو ما يدعو إليـه العلمانيـون والباطنيون ومـن تأثر بهم من المخدوعين من أبناء المسلمين.

ومن شـبهاتهم في تكريـس الوطنية والترويج لهـا زعمهم أنها تقضي عـلى أشـكال الطائفية التـي تفرق الناس على أسـاس الديـن أو العرق أو اللون، ولدحض هذه الشبهة أقول وبالله التوفيق:

إن لفـظ الطائفـة ورد في كتاب الله ﷻ وفي السـنة الصحيحة، وذلك في مواطن كثيرة، والـذي يهمنا من ذلك: المعنيان الكبيران لمفهوم الطائفة الوارد ذكرها في الكتاب والسنة.

المعنـى الأول: إن الله ﷻ أطلـق عـلى المؤمنين اسـم الطائفة كما أطلق في مقابلهـا اسـم الطائفة عـلى الكافرين أو المنافقين، وذلـك في قوله تعالى عن من آمن من قوم شـعيب -عليه السلام- ومن كفر منهم: ﴿ وَإِن كَانَ

طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف:١٤]، فسمى المؤمنين طائفة ويقابلهم طائفة الكفار الذين لم يؤمنوا، وليس بين هاتين الطائفتين التقاء ولا ولاء ولا محبة ولا نصرة، بل المتعين على طائفة المؤمنين البراءة من طوائف الكفر والنفاق، وبذل البغض والعداوة لهم، وجهادهم بالبيان والسنان كلاً بحسبه حتى يكون الدين كله لله وحده، فطائفة المؤمنين في شق، وطائفة الكفار والمنافقين في شق آخر. ولا يجوز للمسلم أن يستحيي من استخدام هذا المصطلح (الطائفية)، بل عليه أن يغتبط ويعتز بأنه من طائفة المؤمنين، وأنه مفاصل ومتبرئ من طوائف الكفر والنفاق.

إن الذين يتذرعون برفض الطائفية منطلقاً باسم الوحدة الوطنية أو القومية أو الإنسانية يريدون التوصل بذلك إلى ما يسمونه بالتسامح ورفض عقيدة الولاء والبراء وشريعة الجهاد وتقديس الوطن، وجعل أبناء الوطن الواحد أو الإقليم الواحد إخواناً ولو كان منهم اليهود والنصارى والمشركين والروافض الباطنيين والمنافقين. ويصفون الحروب التي تنشأ بين المؤمنين والكفار في بلد أو إقليم واحد بأنها فتنة طائفية وحروب أهلية، أما إنها طائفية فحق ونعتز بذلك، وأما أنها أهلية فلا، لأن الكفار ليسوا من أهلنا. وقد تأثر بهذه الشبهات بعض أبناء المسلمين فراحوا يدافعون عن أنفسهم، وينفون أن يكونوا طائفيين، وما علموا أن حربنا مع الكفار والمنافقين جهادية طائفية، وليست حروباً أهلية، لأن

الحروب الأهلية هي ما يحصل بين طوائف المؤمنين، كما سيتبين في الفقرة القادمة -إن شاء الله تعالى-.

أما الحروب التي تكون بين المؤمنين والكفار فإنها ليست أهلية، بل جهادية، لأن الكفار ليسوا أهلنا ولا من فئتنا، قال الله -عز وجل لنوح -عليه السلام- في ابنه من صلبه بعد أن أغرقه الله مع الكافرين: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦].

المعنى الثاني: ورد ذكر الطائفة أيضاً في القرآن ويراد منها طوائف المؤمنين حسب مهماتهم أو أوصافهم، لكنهم كلهم يشملهم وصف الإيمان، كما في قوله ﷻ: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران:١٢٢]، ومن ذلك قوله ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله**»[1]. وكل طوائف المسلمين يجب بذل الولاء والنصرة لهم كل بحسبه، فكل مسلم من أهل القبلة يجب بذل الولاء العام له، ولا ينتفي عنه مطلق الولاء إلا بخروجه عن الإسلام، ولكن الولاء يكون بحسب ما يكون عليه المسلم، فإذا كمَّل صفات المسلمين والمؤمنين والتزم بعقيدة أهل السنة والجماعة، فله بذلك الولاء المطلق، وإن أخل بشيء من ذلك كما هو الحال في طوائف البدع غير المكفرة، فله مطلق الولاء، يوالى بما فيه من الخير والاتباع، ويتبرأ مما يتلبس به من الفسق والبدعة، ولا يتبرأ منه من جميع الوجوه إلا إذا خرج عن ملة الإسلام.

---

(١) البخاري (٣٦٤٠).

وإذا كان الولاء يبذل لكل طوائف المسلمين، فإن القتال بينهم يكون محرماً، لأنه قتال فتنة (إلا مع أهل البغاة). ويصدق على الحروب التي تكون بين المسلمين أنها أهلية يجب اجتنابها، والسعي في إخمادها، إلا في حالة قتال الصالحين من المسلمين كالبغاة والمحاربين.

وفي الختام نقول لمن يرفع سيف الوطنية ليسكت به أهل العلم الذين ينصحون للأمة، ويكشفون اللبس والتضليل عنها: كفى بكم يا أدعياء الوطنية ابتزازاً وتنطعاً واستهلاكاً لمصطلح الوطنية، فهي شنشنة نعرفها منكم، حيث تركبون هذا المصطلح؛ لتمرروا من خلاله أفكاركم ومخططاتكم، ولتستعدوا بها على أهل التوحيد الذين ينصحون للأمة والذين لا تنطلي عليهم مثل هذه الشعارات البراقة، لأنهم لا يرون شيئاً فوق عقيدة التوحيد والولاء لها ولأهلها، ويرفضون دعوة تهميش التوحيد والولاء والبراء فيه، ويقدمون الولاء لله تعالى على كل اعتبار من وطن وقبيلة وطائفة، ويرون أن توحيد الأمة لا يكون إلا بالتوحيد وتطهيرها من الشرك، وإلا فهو الفشل والفرقة والفتن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]. أي أن فتنة الشرك أكبر من فتنة الاقتتال.

د- المغالطة بمصطلح الإنسانية

إن من الواجب على المسلم أن يزن كل شئونه ومواقفه بميزان الكتاب والسنة المبرء من الخلل والشطط؛ لأنه هو الذي يؤهله ليكون

أبعد الناس عن الانسياق وراء الشعارات والمصطلحات المضللة، مهما كان بريقها، ومهما كان مكر الأعداء في التلاعب بها وعرضها في قوالب مزخرفة، وفي واقعنا المعاصر يظهر لنا خبث أعداء هذا الدين من الكفار والمنافقين، وذلك في التلاعب بالمصطلحات والتلبيس على الناس بها، واستخدموا في ذلك وسائل الإعلام المختلفة التي يتحكمون بها، والتي ما تفتأ تبدئ وتعيد في طرح المصطلحات الغامضة والتلاعب بها في إضلال الناس وغسل أدمغتهم، وجعلها مع الوقت والتكرار أمراً مسلماً ومقبولاً لا يحتمل النقاش. ومن هذه المصطلحات المضللة مصطلح (الإنسانية) والدعوة إليه والترويج له، فما حقيقة هذه الدعوة المضللة وما أهدافها؟! وقد كشف حقيقة هذه الدعوة الخبيثة وأهدافها الأستاذ محمد قطب -حفظه الله تعالى- ومنذ ما يزيد على ثلاث عقود من الزمن، وكأنه يتحدث عن واقعنا المعاصر. أنقل منها بعض المقتطفات لتتضح حقيقة هذه الدعوة، ثم تفنيدها.

يقول وفقه الله تعالى:

(الإنسانية -أو العالمية كما يدعونها أحيانا- دعوى براقة، تظهر بين الحين والحين، ثم تختفي لتعود من جديد، يا أخي! كن إنساني النزعة، وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء.. دع الدين جانباً فهو أمر شخصي، علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب، لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين.. فإنه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر.. بين الأخوة في الإنسانية، تعال نصنع الخير لكل البشرية، غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين!

فلنصدق -مؤقتا- أنها دعوى مخلصة للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره أو سلوكه، فلنأخذ مثالاً واحداً من العالم المعاصر.. من المعاملة التي يلقاها المسلمون في كل مكان في الأرض، يقعون فيه في حوزة غير المسلمين، أو في دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد...

فلننظر إلى «الإنسانية» التي يعاملون بها، «والسماحة» التي يقابلون بها، «وسعة الصدر»، و«حب الخير» الذي ينهال عليهم من كل مكان!

هذه فلسطين ظلت أربعة عشر قرناً من الزمان أرضاً إسلامية... ثم جاء اليهود ليقيموا عليها دولة يهودية.. ولم يستنكر أحد من «الإنسانيين» طرد السكان الأصليين وإجلاءهم عن أرضهم بالقنابل والمدافع، بل بشق بطون الحوامل والتلهي بالتراهن على نوع الجنين، كما فعلت العصابات اليهودية التي كان رأس إحداها مناحم بيجن... وإنما استنكرت من المسلمين أن يطالبوا بأرضهم، وألا يخلوها عن طيب خاطر للغاصبين!

ويطول الأمر بنا لو رحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين في قبضة غير المسلمين، أو الذين يتعرضون لعدوان غير المسلمين في كل مكان في الأرض... في روسيا الشيوعية التي قتلت ما يقرب من أربعة ملايين من المسلمين، وفي يوغسلافيا التي قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم، وفي أفغانستان التي تستخدم فيها الأسلحة المحرمة «دولياً» و«قانونياً» و«إنسانيا»! -ومثل ذلك في العراق والصومال- وفي أوغندا، وفي تنزانيا، وفي.. وفي.. وفي.

فمال بال «الإنسانيين»؟ ما بالهم لا يتحركون؟! ما بالهم لا يصرخون في وجه الظلم الكافر، الذي لا قلب له ولا ضمير؟!

إنما توجه دعوى «الإنسانية» فقط ضد أصحاب الدين!

فمن كان متمسكاً بدينه فهو «المتعصب»، «ضيق الأفق» الذي يفرق بين البشر على أساس الدين، ولا يتسع قلبه «للإنسانية»، فيتعامل معها بلا حواجز في القلب أو في الفكر أو في السلوك!

أو قل على وجه التحديد: إن الذين يحاربون اليوم بدعوى «الإنسانية» هم المسلمون! يحاربون بها من طريقين، أو من أجل هدفين:

الهدف الأول: هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض، وهدم عقيدة الولاء والبراء، لكي تنبهم شخصيته وتتميع.

والهدف الثاني: هو إزالة روح الجهاد من قلبه.. ليطمئن الأعداء ويستريحوا!!

فباسم الإنسانية يقال للمسلم الحق: يا أخي لا تعتزل الناس! إن الإنسانية كلها أسرة واحدة، فتعامل مع الأسرة كفرد منها، ولا تميز نفسك عنها! وشارك في النشاط «الإنساني» ومظاهر الحضارة الإنسانية.. تلك هي القضية! إن تمسك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الإسلام بصورة جنونية.. ولا يهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه

ومن وسائل ذلك كما أسلفنا دعوى الإنسانية والعالمية فإذا تميع بالفعل، ولم تعد له سمته المميزة له، احتقروه كما احتقرت أوربا الأتراك بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم و«فرنجهم» و«غربهم»! بينما يقول أحد المبشرين في كتاب «الغارة في العالم الإسلامي»: إن أوربا كانت تفزع من «الرجل المريض» (وهو مريض) لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده، وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية أو الهدف الثاني من استخدام دعوى «الإنسانية» في محاربة المسلمين.

إن أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه!.. (ودعوى الإنسانية) من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين....

إن الإسلام صريح في توجيه أتباعه إلى التميز عن أحوال الجاهلية، التميز بنظافة السمت ونظافة الأخلاق ونظافة السلوك، والاستعلاء بالإيمان على كل مصدر ليس إسلامياً أو متعارض مع الإسلام، حتى لو لحقت بهم هزيمة مؤقتة أو ضعف طارئ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

ومصدر التميز هو الإحساس بأنهم على الهدى وغيرهم على الضلال، وأن المنهج الذي يعيشون به هو المنهج الأعلى؛ لأنه المنهج الرباني، والذي يعيش عليه غيرهم هو المنهج الأدنى؛ لأنه منهج جاهلي، فهو ليس تميزاً مبنياً على الجنس ولا اللون ولا الجاه ولا الغنى ولا القوة، ولا أي معنى

مـن المعاني الأرضية التي تعتز بها الجاهلية، وتسـتعلي بهـا على الناس، إنما التميز المستمد من معرفة المنهج الرباني واتباعه)[1] ا.هـ.

ومن شـبه الداعين إلى الإنسانية كهدف لحوار الحضارات قولهم: إن حـوار المسـلمين مع أهل الديانـات الأخرى ليس حـوار عقائد، وإنما هو حوار على القواسـم المشـتركة المتفق عليهـا بين الجميع؛ كخلق التسـامح والعدل ومحاربة الظلم ونشر السلام والقيم الفاضلة، ولا يخفى ما في هذا الكلام من غباء ومغالطة ومخالفة لبديهيات العقل والشريعة.

أي عـدل، وأي أخـلاق فاضلـة يُطمع فيهـا من الكفـار الذين كفروا بربهم، فهم بين ملحد دهري أو مشرك مؤمن بعقيدة التثليث وتأليه عيسى -عليه السـلام- أي عدل وخلق يطلب من الكفار الصليبيين، الذين قتلوا الملايين من المسلمين وشردوهم وسجنوهم، وحاصروا بلدانهم حتى مات مليون طفل من حصارهم في العراق وغزة وغيرهما. إن من كفر بالله ﷻ قد وقع في الظلم الأعظم، وعليه فلا يتوقع من هذه حاله إلا الظلم والأخلاق الرذيلـة والاسـتبداد والطغيـان، قـال الله ﷻ: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفـال:١٧]، والواقـع شاهد بذلك: إن من يرجوا سلاماً أو عدلاً أو أخلاقاً طيبة من الكفار كمن يستنبت بذوراً في الهواء أو يحرث في البحر.

---

(١) «مذاهب فكرية معاصرة» (ص٥١٠-٥٢٤) باختصار وتصرف يسير.
ولمزيد من الرد على هذه النحلة الخبيثة انظر الردود في الصفحات السابقة على دعاة التسامح مع الكفار والتقارب معهم.

إنه لا شيء يضبط السلوك الإنساني ويزكي النفوس ويأطرها على محاسن الأخلاق وترك سيئها غير توحيد الله ﷻ والخوف منه سبحانه، ورجاء ثوابه، ومراقبته في السر والعلن، والشعور باطلاعه ﷻ على خفايا القلوب ومنحنيات الدروب، وهذا كله لا يأتي إلا بالتربية على التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته ومقتضياتها والتعبد له سبحانه بها، مما يكون له الأثر في ظهور آثارها على أخلاق الناس وسلوكياتهم، وإذا لم يوجد هذا الشعور وهذه التربية على العقيدة، فإنه لا تنفع أي محاولة مهما كانت في تهذيب سلوك الناس، مهما وضع من النظم والقوانين والعقوبات، فغاية ما فيها ضبط سلوك الفرد أمام الناس والقانون، فإذا غاب عن أعينهم ضاعت الأخلاق واضطربت القيم، وهذا هو الفرق في علاج انحراف النفس البشرية والمجتمع الإنساني بين منهج الله ﷻ القائم على تربية الناس على العقيدة وبين المناهج الجاهلية البعيدة عن منهج الله ﷻ، إن عقيدة التوحيد هي الأصل في إصلاح النفوس والأخلاق، وبدونها تفسد الأخلاق والقيم ولو صلحت بعض الأخلاق بدوافع أخرى غير العقيدة؛ كالعادات ورقابة القانون أو المصالح النفعية، فإنها لا تدوم بل تزول بزوال المصلحة أو الرقيب.

ويحسن بنا في هذه الوقفة تنبيه المخدوعين من أبناء المسلمين الذين انخدعوا ببعض الأخلاق النفعية التي يجدونها عند الكفار في ديارهم كالصدق في المواعيد والأمانة والوفاء بالعقود، إلى أن هذه الأخلاق لم يكن دافعها الخوف من الله ﷻ ورجاء ثوابه في الدنيا والآخرة، وإنما هي أخلاق

نفعيـة مؤقتة يريـدون منها مصالحهـم الخاصة والدعاية لهـم ولشركاتهم، ولذلـك فإنها لا تـدوم معهم، وإنما تـدور معهم حسـب مصالحهم بدليل أن هذه الأخلاق تنعدم ويحل محلها الأخلاق السـيئة من الكذب والخداع والظلـم والطغيـان إذا كانـت مصالحهم تقتـضي ذلـك. ومراجعة سريعة للحروب الصليبية لبلدان المسلمين القديم منها والحديث يشهد على ذلك.

إذن فهم في تربيتهم الجاهلية يسـعون لإنشـاء المواطن الصالح الذي يسـعى لمصلحتـه ومصلحة وطنه فحسـب، ولو كان بالعـدوان على دماء الآخريـن وأموالهم والكذب عليهم وخداعهم، أما الإسـلام فإنه ينشـئ الإنسان الصالح، ذلك المسلم الرباني الذي تكون أخلاقه ثابتة معه في ليله ونهاره، في سره وعلانيته، في سرائه وضرائه، في داخل وطنه وخارجه.

ثانياً: التصدي لكشف تلبيس الملبسين حول شعيرة الجهاد:

إنـه لمـن المؤسـف أن يضـع بعـض الدعـاة والمفكرين من المسـلمين أنفسهم موضع المتهم المنهزم، الذي يريد أن يبرئ نفسه من تهمه، ويحسن وضعـه عند خصمـه. إن هذا المنهج الأعوج هو ما يتبنـاه اليوم بعض من قام بالرد على الملبسـين من الكفار والمنافقين في قولهم: إن الإسـلام انتشر بالسـيف وسـفك الدماء، فبادر هؤلاء بالرد عليه بقولهم: إن الإسـلام لم ينتـشر بالسـيف، ولكن بالدعـوة والبيـان، وإنما كان السـيف للدفاع عن النفـس وعن الديار فقط!! ولا يخفـى ما في هذا الكلام من مخالفة لما ذكره الله ﷻ في كتابـه الكريـم عـن غاية الجهاد ومـا فيه أيضاً من مخالفة لسـيرة الرسـول ﷺ والخلفاء وأمراء المسـلمين من بعده في تسـيير الجيوش لفتح

الدنيا وإزالة الطواغيت الذين يصدون عن الدين الحق، وحتى لا تكون فتنة؛ أي شرك. ويكون الدين كله لله، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (والسيف إنما جاء منفذاً للحجة مقوماً للمعاند، وحداً للجاحد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥]. دين الإسلام قام بالكتاب الهادي ونفذه السيف الماضي شعر:

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف ... يقيم ضباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل ... وهذا دواء الداء من كل جاهل[1]

ويناقش صاحب »الظلال« هذه المسألة بكل عزة، فيقول: (إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر، وتحت الهجوم الإستشراقي الماكر، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة؛ لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المنافحون -المهزومون- عن سمعة الإسلام، بنفي هذا الاتهام! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في «تحرير الإنسان» ابتداء...

---

(١) «هداية الحيارى» مقدمة الكتاب.

والمهزومون روحياً وعقليا حين يكتبون عن (الجهاد في الإسلام) ليدفعوا عن الإسلام هذا الاتهام.. يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله، ومن أجل هذا التخليط -وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة!- يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: «الحرب الدفاعية».. والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات..

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده -سبحانه- وربوبيته للعالمين..

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من: أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير (الإنسان).. نوع الإنسان.. في الأرض.. ملء الأرض.. ثم تقف أمام العقبات تجاهدها باللسان والبيان!.. إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد، تخاطبهم بحرية، وهم

مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات.. فهنا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية، فلا بد من إزالتها أولا بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله وهو طليق من الأغلال)[1].

ولقد وقفت على مقال نافع في موقع (المختصر) أحسب أن صاحبه وفق لبيان الحق في هذه المسألة، ومن باب الفائدة أنقله مختصراً: (إنَّ الإسلام يحتاج اليوم إلى من يقدمه للناس كما هو بعزَّة ووضوح، نعم بحكمة ولكن دون تحريف أو انهزام، والذي أعتقده أنّ الفرصة هذه الأيام سانحة لمثل هذا التقديم، فلا ينبغي تضييعها، والإسلام ليس ضعيفًا كي نضعه في قفص الاتهام، ثم نجهد في الدفاع عنه لإخراجه منه!

وهكذا أوقعونا في الفخ فقالوا: إنَّ إسلامكم انتشر بالسيف، ودينكم دين إرهاب، وإنَّ نبيكم لم يأتِ إلا بالدمار للعالم! وأنتم معشر المسلمين تحبون الدماء! فقام المخلصون، وهم إما جهلة، وإما منهزمون، وإما يريدون تجميل الإسلام إلى أن يفتح الله، وإما -وللإنصاف- مجتهدون، يَردُّون: كلا ديننا لم ينتشر بالسيف، انظروا إلى شرق آسيا لم يدخله الإسلام إلا عن طريق التجار، وكلا نحن لسنا إرهابيين، نحن ألطف من خلَقَ الله! ونبينا نبي الرحمة، حتى الحيوانات لم تهملها رحمته! أما عن حبنا للدماء فإشاعات مغرضة والله!

ألا دعونا مما قاله رئيس الفاتيكان وأجداده وأبناؤه والمستشرقون من قبله، وقولوا لنا: ماذا قال الله سبحانه؟ وماذا قال رسوله ﷺ؟ دعونا من

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٣٣، ٣/ ١٤٤٠) باختصار.

فقه الأزمة هذا الذي يقودكم، وخذونا إلى فقه الرشد الذي دلَّنا اللهُ عليه ورسولُه، وحمله الصحابةُ ومن بعدهم من كبار الأمة وفقهائها، وعليه ساروا حتى وهم في أصعب حالاتهم أيام الصليبيين والتتار، ذلك أنَّ الهزيمة لا تقاس بكم احتل من أشبار، وإنما بكم احتل من قلوب!

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

لقد بينت الآية القاعدة التي يقوم عليها الإسلام، وهي الكتاب، والقوة، وقد قال ابن تيمية رحمه الله: «قوام الدين: كتاب يهدي وسيف ينصر»، لقد جاء الإسلام معلناً للحق، ومؤيداً للحق في نفس الوقت، وما الطغيان الذي نراه اليوم إلا لأن الحق لا قوة له، ولذلك أمر الله المسلمين بالإعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

أمر بذلك لأنه لا يوجد مبدأ دون قوة، وسواء كان هذا المبدأ حقاً أم باطلاً، أرضياً أم سماوياً، فلابد له من قوة تحميه.

الإسلام دين السيف؛ لأنه جاء لقيادة البشرية نحو خيرها، فمن حقها أن تبلغَها الدعوةُ، ولا يمكن هذا إلا بتحطيم الأنظمة التي تحول بين الناس وبين أن يسمعوا كلمة الله، والإسلام دين السيف لمنع الفتنة

التي يقترفها المفسدون في الأرض، وليكون الدين كله لله »لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض«، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

وهل نريد هذا فعلا؟! مع كل هذا الضعف: نعم! ومع كل هذا الهوان: نعم! ونحن تحت القصف: نعم! ونحن مشردون: نعم! هذا هو فقه الرشد الذي لا يتغير في الأزمات! وغيره فقه أزمة لا يمثل الإسلام، وإنما يمثل النفوس المسحوقة..

والإسلام دين السيف؛ لأن الصراع بين الخير والشر لا ينقطع، فالحياة قائمة على قانون التدافع، ولو تمكن الشر وحده من الأمر، كما يحصل الآن، لفسدت الحياة، وما الطغيان الذي نراه اليوم إلا لانعدام القوة المقابلة. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].. والإسلام دين السيف؛ لأنه فعل رسول الله ﷺ، نبي المرحمة ونبي الملحمة؛ نبي المرحمة في وقتها، ونبي الملحمة في وقتها، وهذا مقتضى الحكمة التي بعث بها ﷺ:

فإن قيل: حلم فقل: للحلم موضع... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

فهو ﷺ الذي أمر بقتال الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله.. كما صح عنه، والنص عام والقول: إنه خاص بوقته ضعيف، وهو الذي أمر

كما قال الصحابي فيما رواه البخاري: (أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية)[1].

لقد آن للمسلمين أن يتحولوا إلى موقف الهجوم بدلاً من موقف الدفاع، الذي لصقوا به دهراً طويلاً، وليقولوا للعالمين: إذا كان الإرهاب لحفظ الحق، فنحن إرهابيون، ذلك أن الإرهاب ليس وصفاً مطلقاً، فقد يكون خيراً وقد يكون شراً! كالقتل، منه ما هو شر، ومنه ما هو خير، فقتل النفس البريئة شر، وقتل القاتل خير! وهكذا..

إن من يتهمنا بالإرهاب هم آخر من يحق لهم الكلام عنه، فلسنا نحن الذين استعمرنا وخربنا العالم في القرون الوسطى، وأنهكنا الشعوب وسرقنا خيراتها، ولسنا نحن الذين اصطحبنا رجال الدين ليخدعوا الشعوب باسم الرب! ولسنا نحن الذين أشعلنا أقذر حربين في قرن واحد أكلتا ملايين البشر، ومحقتا خيرات الدنيا! والقائمة تطول)[2] ا.هـ.

(هذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام.. وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم، فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع، إنما يقفون به دائما موقف المطمئن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعاً، وعلى نظم الأرض جميعاً، وعلى مذاهب الأرض جميعاً، ولا ينخدعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله، والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي،

---

(١) البخاري (٢٩٢٥).

(٢) انظر: موقع المختصر مقال (بل الإسلام دين السيف) إبراهيم العسعس.

والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به، والذي لا يجني أحد على البشرية جناية من يحرمها منه، ويحول بينها وبينه. فهذا هو أعدى أعداء البشرية، الذي ينبغي أن يطارده المؤمنون، الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الإيمان، فذلك واجبهم لأنفسهم وللبشرية كلها، وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله..

جاهد الإسلام أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم، وأموالهم، وعقيدتهم. وقرر ذلك المبدأ العظيم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم، وإذا كان المؤمن مأذون في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه..

وجاهد الإسلام ثانياً لتقرير حرية الدعوة -بعد تقرير حرية العقيدة- فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها؛ ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر. ولا إكراه في الدين ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة؛ كما جاء من عند الله للناس كافة. وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا، وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد

الناس عن الإسماع إلى الهدى، وتفتن المهتدين أيضاً. فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية؛ وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة. وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين!

وجاهد الإسلام ثالثاً ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه.. وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان؛ حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال؛ ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها...)[1].

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (١/ ٢٩٤-٢٩٦) باختصار شديد.

المبحث الثالث

التصدي للغزو الموجه لإفساد الأخلاق والأعراض وإثارة الشهوات

سبق أن فصلت الكلام في ذكر وسائل المفسدين ومظاهر إفسادهم في مبحث سابق، وإن من الجهاد أن ينبري المصلحون والدعاة والمربون والمعلمون والآباء والأمهات لمجاهدة هذه الحرب الشرسة على الأخلاق وتدمير الأمة بنشر الشهوات والإباحيات، وهذا النوع من الجهاد يقوم على فريضة الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضح المفسدين، وتحذير الناس وتحصينهم من شر فتنهم، ولا حامي بعد الله ﷻ إلا القيام بهذه الشعيرة، وتطبيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعات المسلمين، فهذا هو صمام الأمان بإذن الله تعالى.

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ...﴾ الآية [هود:١١٦].

ويقول -سبحانه-: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٢-٦٣]. وقال ﷺ: «**وَالَّذِي**

نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[1].

يقول ابن كثير رحمه الله عند الآية الأولى: (يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض).

وقوله: (إلا قليلاً) أي قد وجد من هذا الضرب قليلاً لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤][2] ا.هـ.

ويقول عند تفسير آية المائدة: (يعني: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطي ذلك -أي السحت وقولهم الإثم- والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني: (الربانيين أنهم بئس ما كانوا يصنعون في تركهم ذلك. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٣) وقال: هذا حديث حسن، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥١٤٠).

(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» (ص٦٥١).

قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾ الآية)[1].

وأمثال هاتين الآيتين في القرآن كثير.

والمقصود بيان مسؤولية العلماء والدعاة والمربين من معلمين وآباء وأمهات في تحصين المجتمعات المسلمة من شرور المفسدين، وما يسعون به في نشر المنكرات ومحاولات فرضها على الناس حتى تألفها النفوس، وتنعدم من القلوب إنكارها، والمتابع اليوم لحركات المفسدين وأكابر المجرمين في مجتمعات المسلمين يرى شيئاً خطيراً، يجب أن يتنادى أهل العلم والغيرة للتصدي له وتحصين المجتمع من شره، ألا وهو محاولة المفسدين فرض المنكر الذي يريدونه، وجعل المسلمين أمام الأمر الواقع مستغلين في ذلك مناصبهم أو قربهم من صنع القرار متغافلين ومتجاهلين وغير مكترثين بإنكار المنكرين وصيحات المحذرين من هذا المنكر، وفي ظنهم أن هذا الإنكار وهذه الصيحات تتلاشى شيئاً فشيئاً عندما يفرض المنكر فرضاً، ويتطبع مع الوقت في حياة الناس، ويصبح مألوفاً بعد أن كان منكراً ومبغوضاً، وهنا مكمن الخطر إذ إن تحول المنكر إلى معروف ومألوف أخطر بمئات المرات من تلبس بعض الناس له مع كرههم له وشعورهم بالإثم وهم يفعلونه.

ودفعاً لهذا الخطر العظيم ينبغي اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمدافعة أي منكر يراد فرضه في حياة الناس، ومنها:

---

(١) المصدر نفسه (ص٣٨٨).

أولاً: الاحتساب على من يكون وراء إقرار هذا المنكر، وإبراء الذمة بإنكاره وعدم الرضا به ومحاولة ثنيه عن قراره، وهذا هو المرتبة الثانية في الإنكار، ألا وهو التغيير باللسان أو الكتابة، وتكرار ذلك وعدم اليأس من التغيير.

ثانياً: وفي حالة الإصرار على فرض المنكر وعدم الاستجابة لنصح الناصحين وإنكار المنكرين تبذل المحاولات في تأجيله أو تخفيف آثاره أو تخفيف مفاسده.

ثالثاً: وفي حالة تجاهل ذلك كله والبدء في تطبيقه وإنفاذه، فإنه يبقى واجب كبير على المصلحين، ألا وهو تحصين المجتمع من هذا المنكر واعتقاد مخالفته للشرع، فإن هذا يضمن بإذن الله تعالى إفشاله وإضعافه، حتى ولو تلبس به بعض الناس، إذ إن فعل المسلم للمنكر وهو يعتقد تحريمه وإثم فاعله أهون بكثير من فعله له من غير إنكار له ولا تأثم. ولكي يتحقق هذا التحصين وتفويت الفرصة على المفسدين في تطبيع المنكر، فإنه يجب على المصلحين بمختلف تخصصاتهم ومجالاتهم أن يتعاونوا في ذلك، فالخطيب في منبره والواعظ في مسجده، والكاتب في مقالته، والشيخ في درسه، والمربي والمعلم في مدرسته، والرجل في بيته وقرابته، كل أولئك عليهم أن ينفروا في بيان المنكر للناس، وبيان إثم فاعله، وذلك ليبقى في القلوب تعظيم حرمات الله ونواهيه، ويبقى في القلوب كره المنكر، ويقطع الطريق على من يريد للناس أن يألفوا المنكر وأن يطبعوه في حياتهم من غير إنكار ولا رفض، لأن القلب إذا خلى من إنكار المنكر فإنه على خطر بفقد إيمانه

بالكليـة، وهذا ما يفهم من قوله ﷺ: «**مَنْ رَأى مِنْكُم مُنْكَراً فَلْيُغيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(١).

ولو فرض أن واحداً من هذه الثلاثة السـابق ذكرها لم يتحقق فيكفي الآمريـن بالمعـروف والناهين عن المنكر أنهم أعـذروا إلى ربهم ﷻ وأبرأوا ذمتهم، وكفى بذلك خيراً وأجراً، قال -سبحانه-: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤].

واسـتجابة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ومشـاركة مع إخواني الدعاة، الذين أقلقهم هذا الخطر، وراحوا يبحثون عن كل ما من شأنه مدافعة هذا الخطر وصده عن المسـلمين، أكتب هذه الخواطر السريعة التي كانت محل تفكير وحـوار، والتي أحسـبها تسـهم في إيجـاد مشروع تحصينـي وقائي لأسرنا ومجتمعاتنـا أمـام هذا الخطر الداهم، أسـأل الله ﷻ أن يلهمنا صحة الفهم وحسن القصد، فأقول وبالله التوفيق:

إن المدافعة لهذا السـيل الجارف من الإفسـاد يجـب أن ينفر إليه جميع شرائـح المجتمع من علماء ودعاة ومحتسـبين ومربين وآبـاء وأمهات، لأن الفسـاد من الضخامة والخطورة ما لا يكفيـه جهود أفراد أو طائفة معينة، بـل يحتـاج إلى تضافـر جهـود المصلحـين الذيـن يهمهم إصلاح أنفسـهم وأولادهم وأسرهم ومجتمعاتهم. وأرى أن تتم هذه المدافعة عبر جبهتين:

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

الجبهة الأولى: جبهة الاحتساب والإنكار المباشر على المنظرين أو المنفذين لها أو المساهمين في تمريرها وتسهيلها، وذلك بالإنكار شفاهاً بزيارتهم والاحتساب عليهم، أو الكتابة إليهم ومخاطبة أهل الحل والعقد من أمراء وعلماء، وإظهار الامتعاض والإنكار، وهذا أمر يجب أن ينفر له طائفة من الدعاة والعلماء والمشايخ والقضاة وطلبة العلم والوجهاء، وذلك يتطلب تعاوناً وتشاوراً بين أهل العلم في كل مدينة، وأن يكون هناك مجالس وتوزيع للأدوار والجهود. كما يتطلب جهات مساندة تهيئ لهم المعلومات والوثائق، وحصر ما يجد من منكرات ومعلومات وترتيبها وتنظيمها، وقد وجد مثل هذا والحمد لله في بعض البلدان والمناطق، وآتت ثمارها، ولكنها غير كافية في مقابل ذلك الفساد المستطير، حيث نرى عجلة التغريب في بلدان المسلمين في تسارع شديد، وتجد من يدعمها ويسهل فسادها بالمال والإعلام.

الجبهة الثانية: جبهة التحصين والوقاية للمجتمع من الفساد ببيان المنكرات للناس وتحذيرهم منها، وأحسب أنه لازال هناك تقصير شديد في هذه الجبهة مع أن الثمار المرجوة منها كثيرة جداً واستجابة الناس لها كبيرة والحمد لله، ولا يعني هذا التقليل من جهود القائمين في الجهة الأولى فهم تاج الرؤوس وأجرهم على الله ﷻ وحسبهم أن يفوزوا بالإعذار عند الله ﷻ وإبراء الذمة إذا حوسبت الذمم، مع ما تثمره جهودهم من مراغمة أهل الفساد والتخفيف أو التأخير لبعض المنكرات، وإنما المقصود أن لا تنسى جبهة التحصين والوقاية التي قد تكون أكثر ثمرة وآثاراً، وبخاصة أن المتحركين من المصلحين في الجبهة الثانية يمتلكون

وسائل كثيرة ومجالات متعددة في مخاطبة الناس وتحذيرهم وتحصينهم لا يملكها غيرهم. ولو وظفت التوظيف الصحيح وتضافر الغيورون والمصلحون في تنفيذها، وتوزعت الأدوار فيها لكان لها نتائج باهرة تحبط على المفسدين أهدافهم وترد كيدهم في نحورهم.

وهنا أذكر بعض المقترحات في تفعيل دور هذه الجبهة وكيفية الاستفادة من الوسائل الكبيرة المتاحة في مخاطبة المجتمع وتوجيه الناس.

ومن نافلة القول: أن نُشبِّهَ سيلَ الفسادِ المسلط على مجتمعات المسلمين وتنوع الناس في مقاومته بسيل جارف ينتهي إلى تغريق أراضي وعمران ودور. وأصحابها يعلمون أنه سيخرب دورهم ومزارعهم وأموالهم، فانقسموا إلى فرقتين.

الأولى: فرقة رأت أن لا خلاص من خطر هذا السيل، إلا أن يهب الجميع في قطعه من منبعه وأصله، فتعذر ذلك غاية التعذر، وأبت طبيعة السيل وقوته عليهم ذلك، فكلما سدوه من موضع نبع من موضع آخر، وانشغل أهل القرية بشأن هذا الوادي عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار وتحصين البيوت، ويمكن أن يكون في عمل هذه الفرقة تخفيف لشدة السيل أو سد لبعض منابعه، لكن لا يمنعه عن بيوت الناس وممتلكاتهم.

الثانية: رأت أن صرف الجهود كلها في عمل الفرقة الأولى قد أضاع عليهم كثير من المصالح، ولم يستطيعوا منع السيل فاتجهوا إلى بيوتهم في تقويم أساسها وقواعدها ورفع أسوارها عن مجرى السيل كما اتجهوا إلى صرف سيل الوادي عن مجراه المنتهي إلى البيوت والعمران، وذلك

بتحذير الناس من شره القادم وبتوجيه الناس إلى أن يحصنوا بيوتهم من هذا السيل ويتضافر الجميع على صرفه عن بيوتهم وعمرانهم إلى الرمال المحيطة بهم أو السبخات أو الحفر التي يجد السيل فيها مصرفاً له يضيع فيه ويتفرق[1].

والمقصود من إيراد هذا المثال التأكيد على أهمية العمل في جبهة التحصين والوقاية للناس والمجتمعات من سبل الفساد الموجهة إليهم، وأن يعطى حقه من الاهتمام مع بذل الجهد من أهل العلم في الجبهة الأولى، وذلك بالاحتساب على المفسدين ولو للتخفيف أو التأخير، وأهم من ذلك إبراء الذمة والإعذار إلى الله ﷻ والمقصود توزيع الأدوار، وأن لا ينشغل الدعاة بجبهة عن جبهة.

وأسوق فيما يلي ما يحضرني من الوسائل القوية التي يملكها المصلحون من الدعاة وطلبة العلم، ولا يملكها غيرهم من المفسدين. وكيف يمكن تفعيلها وتنشيطها وتوظيفها.

الوسيلة الأولى: المنابر الدعوية والإعلامية:

ويقصد بها تلك المنابر التي يخاطب فيها فئام من الناس على مختلف شرائحهم، ويحصل من خلالها تحذير الناس ووعظهم، وبيان خطر المنكرات على الفرد والبيت والمجتمع، وبيان ذلك بالفتاوى الشرعية المستندة إلى الأدلة الشرعية.

---

(١) مستفاد بتصرف من كتاب «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٢).

ويدخل تحت مسمى المنابر الإعلامية ما يلي:

أ- خطبة الجمعة:

حيث أثرها العظيم على الناس، ومما تتميز به دقة الإنصات من السامعين وتركيزهم على ما يقال فيها، وهذه المنابر نعمة من نعم الله ﷻ على المسلمين ووسيلة عظيمة الفائدة، يمتلكها الدعاة إلى الله ﷻ ولا يملكها المفسدون. وأقترح لتفعيل دور الخطبة واستثمارها في إصلاح الناس وتبغيض الفساد والمنكرات لهم النقاط الآتية:

- **أولاً**: إيجاد رابطة مستمرة بين الخطباء في كل حي تجتمع في كل أسبوع، وذلك للتنسيق وتبادل الخبرات وتبادل الخطب، وتحديد المواضيع المهمة للخطبة وترتيب الأولويات في ذلك، كما يقترح رابطة أوسع للخطباء على مستوى المدينة، وذلك في كل شهر مرة، وذلك لتوسيع دائرة التشاور وتنسيق الجهود.
- **ثانياً**: أن يتخصص أناس لجمع الخطب الجيدة القديم منها والجديد، التي يحتاج إليها المجتمع وطبعها وجعلها في متناول الخطباء، ليرجعوا إليها في كتابة الخطبة.
- **ثالثاً**: أن يتخصص أناس لجمع الفتاوى القديمة والجديدة للعلماء، التي يبين فيها أهل العلم الحكم في المنكرات القديمة والجديدة، التي تعشعش بين المسلمين أو هي في بدايتها، وذلك لرفضها من الناس ومقاطعتها وتزويد الخطباء بها لقراءتها على الناس.

- **رابعاً**: التعاون مع القائمين على إذاعة القرآن بالاقتراح عليهم تسجيل بعض الخطب المهمة، التي يتفق عليها سلفاً لتذاع على الناس وتكرر عليهم.
- **خامساً**: طبع الخطب الجيدة والمهمة في رسائل صغيرة وتوزيعها مجاناً أو بيعها بسعر رمزي.
- **سادساً**: الحرص على محلات التسجيل على تسجيل الخطب المهمة ونشرها بين الناس، وأن يصاحب ذلك تغطية من الدعاية الجيدة والتسويق القوي.
- **سابعاً**: يفعّل دور أئمة المساجد وحلقات التحفيظ في توزيع أشرطة الخطباء الجيدة على بيوت الحي.

ب- الدروس والمحاضرات والجولات الوعظية:

وهذه من الوسائل المهمة التي لو رتبت مواضيعها وأماكنها وأوقاتها لظهر لها وقع عظيم في تحصين الناس ووقايتهم من الفساد، وهي -والحمد لله- كثيرة ومنتشرة، ولكن تحتاج إلى تفعيل وتنشيط وتنظيم؛ لكي يكون أثرها أكبر مما هي عليه الآن، ومن الوسائل المقترحة لتفعيلها ما يلي:

- **أولاً**: اختيار المواضع المهمة للمحاضرات والدروس وتوظيف الدروس في مخاطبة الناس ووعظهم، وتحذيرهم من المنكرات، سواء كان ذلك عندما يأتي مناسبة في الدرس أو تخصيص آخر الوقت في الدروس للحديث عن المنكرات والتحذير منها، أو

تعد أسئلة مهمة تطرح على الشيخ ليجيب عليها في نهاية الدرس، ويركز على مظاهر الفساد والموقف منها.

- **ثانياً**: تحريك بعض طلبة العلم المؤثرين بما عندهم من العلم والديانة والبلاغة في أن يشاركوا وينفروا، وأن يعيدوا النظر في سلبيتهم وقعودهم.
- **ثالثاً**: التنسيق مع إذاعات القرآن والقنوات الإسلامية بنقل الدروس والفتاوى والمحاضرات المهمة في إذاعة القرآن.
- **رابعاً**: مساعدة المُحاضِر في جمع المادة العلمية والفتاوى المهمة التي يستخدمها في إقناع الناس برفض الفساد وتحريمه ومقاطعته.
- **خامساً**: قيام محلات التسجيل بتسجيل مثل هذه الدروس والمحاضرات المهمة والدعاية لها وتسويقها بين الناس.
- **سادساً**: نشر هذه المحاضرات في بيوت الحي عن طريق مساجد الحي وحلقات التحفيظ ودعمهم مادياً.
- **سابعاً**: يحسن أن يكون هناك رابط أسبوعي أو شهري بين طلبة العلم، الذين يقومون بالدروس والمحاضرات للتنسيق بينهم والتشاور في المواضيع المطروحة.

ج- الاستفادة من إذاعات القرآن والقنوات الإسلامية:

وميزة هذه الوسائل الإعلامية أنها تخاطب الفئات الكبيرة من الناس، لذا صارت من أهم الوسائل التي ينبغي أن يعتني بها الدعاة إلى الله ﷻ

واستثمارها في توجيه الناس وتحصينهم، وتحذيرهم من الفساد الموجه لهم، ورد شبهات المفسدين، ومن أوجه الاستفادة من هذه المنابر ما يلي:

١- ما يكون فيها من برامج الإفتاء، ويحسن أن توظف هذه البرامج في تحذير الناس من صور الفساد المسلطة عليهم وبيان الحكم الشرعي فيها والتركيز على هذا النوع من الفتاوى.

٢- تقديم الدروس العلمية المبسطة التي توعي الناس بدينهم (في التفسير والعقيدة والفقه والآداب) وترفع عنهم اللبس والتضليل.

٣- إجراء المقابلات والندوات والحوارات في القضايا التي تحذر المسلمين مما يراد بهم من الفساد والشر والرد على الشبهات وفضح أهلها.

٤- ولتفعيل دور هذه المنابر يحث أهل القدرات الإعلامية من الدعاة للدخول فيها والتعاون مع القائمين عليها في تهيئة البرامج وتقديم المواد التي تحقق الأهداف.

٥- نقل الخطب والدروس والدورات الشرعية التي تعقد في المساجد.

الوسيلة الثانية: إحياء اللقاءات الأسرية ولقاءات الأحياء:

حيث ثبت بالتجربة عظيم فائدتها في تأليف القلوب والتعاون على الخير والتحذير من الفساد والمنكرات، ولو أن أهل الاستقامة في كل

أسرة وكل حي -وهم كثير والحمد لله- كونوا هذه الروابط واللقاءات واستثمروها في وقاية الأسر والجيران نساءً ورجالاً من شر الفساد والمنكرات لكان لها الأثر العظيم. ومن الأعمال الخيرة التي تقوم به هذه الروابط واللقاءات ما يلي:

١- توزيع الأشرطة والأقراص المدمجة والكتيبات التي تنشر الفضيلة وتحارب الرذيلة.

٢- توزيع الفتاوى التي تبين حرمة ما جدَّ في حياة المسلمين من منكرات البيوت.

٣- إقامة المسابقات الهادفة التي تنبه السامعين إلى أمور شرعية قد يجهلونها أو يغفلون عنها.

٤- استضافة بعض طلبة العلم المؤثرين ليتحدث عن بعض المنكرات وضرورة إنكارها، وتحصين البيوت وتربية الأولاد والنشأة على حب الفضيلة وبغض الفساد والرذيلة.

العناية بشؤون المرأة وتوعيتها بأحكام الإسلام، وتحذيرها من منكرات اللباس والزينة، وما يراد لها من إخراجها واختلاطها بالرجال، ويمكن أن تنشأ روابط نسائية في الأسرة، تتولى المستقيمات في كل أسرة تحقيق هذه الأهداف بما سبق من الوسائل.

٥- مراقبة الحي وما فيه من المنكرات والتعاون مع الهيئات لإزالتها.

الوسيلة الثالثة: أئمة المساجد:

لا يخفى دور إمام المسجد في نشاط المسجد ونشاط الحي الذي فيه المسجد، وهذا ملموس من بعض الأئمة الناشطين، فلو أن إمام كل مسجد قام بدوره في جماعة الحي لكان في ذلك خير عظيم وسد منيع، ومن أهم الأنشطة التي يقوم بها إمام المسجد ما يلي:

١- القراءة على جماعة المسجد في الكتب والفتاوى، التي تحذر من الفساد والمنكرات في البيوت أو الأسواق وغيرها.

٢- التعاون مع دورية الحي في دعم أنشطة المسجد وحلقات التحفيظ ومتابعة المنكرات في الحي.

٣- استضافة طلاب العلم ليلقوا كلمات ومحاضرات وفتاوى تدعو الناس إلى الخير، وتحصنهم من الفساد وتحذرهم منه.

٤- متابعة المحاضرات والدروس في المساجد الأخرى، وتبليغ جماعة المسجد بها مشافهة، أو عن طريق الملصقات الإعلانية.

٥- التعاون مع حلقات التحفيظ في توزيع الكتيبات والأشرطة على منازل أهل الحي.

٦- تفقد الأشخاص الذين لا يصلون مع الجماعة ومناصحتهم ودعوتهم إلى لقاءات أهل الحي.

٧- إقناع طلاب العلم من جماعة المسجد على فتح دروس في المسجد، سواء كانت لعوام المسلمين أو المتعلمين.

٨- ولتفعيل دور الإمام في المسجد يحسن تكوين رابطة لأئمة المسجد في الأحياء المتقاربة والتشاور معهم، وتبادل الخبرات في أنشطة المساجد.

٩- الاستفادة من المشرفين على حلقات التحفيظ في تقديم الفتاوى واقتراح الرسائل المهمة التي تقرأ على جماعة المسجد.

الوسيلة الرابعة: حلقات التحفيظ ومكتبات المساجد:

لا يخفى دور هذه الحلقات المباركة في حفظ أبناء الحي بحفظهم لكتاب الله ﷻ وتربيتهم وتحصينهم من الفساد، ومع ذلك يمكن أن يستفاد من هذه الحلقات ليظهر أثرها في أهل الحي، وذلك بالوسائل الآتية:

- توزيع الأشرطة والأقراص المدمجة والكتيبات على بيوت الحي.
- إعطاء طلاب التحفيظ بعض الأشرطة والفتاوى والكتب لأخذها إلى أهليهم مما من شأنه تحذير البيوت من المنكرات والفساد.
- الاهتمام بأولياء أمور طلاب التحفيظ والاجتماع بهم في دورية شهرية للعناية بأبنائهم والتناصح معهم في إصلاح البيوت وتطهيرها من الفساد.

الوسيلة الخامسة: مواقع شبكة المعلومات:

وقد ظهر أثر هذه المواقع في الآونة الأخيرة لما ظهرت المواقع الإسلامية للمشايخ والمؤسسات الإسلامية والمواقع التي تهتم بالمرأة والحسبة. لذا يجب الاهتمام بها وتفعيلها وتقديم المادة المناسبة التي فيها

تحذير المسلمين مما يراد بهم من الفساد وتخصص بعض أهل العلم في تتبع شبهات المفسدين وشهواتهم والرد عليها.

الوسيلة السادسة: المعلمون في المدارس:

المعلم المسلم صاحب الرسالة لا ينظر إلى وظيفته بأنها مصدر للرزق فحسب، وإنما هي من أهم المجالات التي يمكن تربية النشأ فيها وتحصينهم من الفساد والمنكرات. كما يمكن التأثير من خلال التعليم على أسر الطلاب وبيوتهم بإيصال بعض الفتاوى والأشرطة عن طريق أبنائهم، وكذلك يستفاد من مجالس الآباء في المناصحة مع أولياء الأمور في التخلص من المنكرات والفساد.

الوسيلة السابعة: الحسبة والاحتساب:

من خصائص هذه الأمة أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وكلما شاع الاحتساب وانتشر قل الفساد واندحر المفسدون، سواء كان ذلك على يد مراكز الهيئات أو عن طريق المحتسبين، لذا ينبغي للدعاة وطلاب العلم والمحاضرين أن يحثوا الناس على مختلف طبقاتهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلاً فيما يخصه وحسب علمه وقدرته.

الوسيلة الثامنة: الكتاب والمؤلفون:

إن الإكثار من الكتب والرسائل والمطويات التي تحذر من الفساد وتكشف خطط المفسدين لتعد من أهم الوسائل التي توعي الأمة وتحذرهم من كيد المفسدين وتلبيسهم وتضليلهم، وذلك بما يكون في هذه

المؤلفات من بيان حكم الله ﷻ في مظاهر الفساد الذي يروج له المفسدون، وكشف شبهاتهم التي يلبسون بها على الناس.

الوسيلة التاسعة: أماكن الانتظار العامة:

وذلك مثل الانتظار في عيادات الأطباء، وصرف الدواء في الصيدليات الحكومية ومحلات الحلاقة ومكاتب العقار وما شابهها.

حيث من المفيد تزويد هذه الأماكن بمطويات ورسائل وفتاوى تناسب حاجة الناس، وتحذيرهم وتحصينهم من سبل الفساد.

الوسيلة العاشرة: الدور النسائية لتحفيظ القرآن:

لم يعد خافياً أثر هذه الدور المباركة -إن شاء الله- في تحصين المرأة المسلمة من كيد أعدائها، وتعليمها دينها، وتحذيرها من مظاهر الفساد الموجه لها وللأسر المسلمة، والعناية بالمرأة المسلمة له أثر في نفسها، كما أن له أثرًا كبيرًا في إصلاح الأسر والبيوت، حيث تنقل المرأة ما تسمع وترى وتقرأ في هذه الدور، وما يوزع فيها من أشرطة وكتيبات وفتاوى إلى أسرتها وأولادها، لذا لزم الأمر العناية الشديدة بهذه الدور.

الوسيلة الحادية عشرة: رسائل الجوال، ومواقع التواصل الاجتماعي في الشبكة العنكبوتية:

لقد ظهر في الآونة الأخيرة أثر رسائل الجوال ومواقع الاتصال في نشر الخير والشر، لذا ينبغي توظيفها من قبل المصلحين في نشر الفضيلة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدلالة على الكتب والفتاوى والدروس المفيدة والتحذير من الفساد وتعرية أهله وتبيين المنكرات ودفع الناس لإنكارها.

تنبيهات مهمة:

الأول: لابد في الوسائل السابقة من عمل مرتب ومنظم، ترتب فيه الأولويات وتوزع فيه الأدوار، ويجند فيه الغيورون من الصالحين في إحيائه وتنفيذه بتوجيههم واستثمار طاقاتهم، ولا يكتفي بالجهود الفردية.

الثاني: العناية بالجانب التربوي في أوساط الدعاة وطلبة العلم وأهل الاستقامة من شباب الأمة وفتياتها، والعناية بصحة الفهم والتصورات وحسن السلوك والأخلاق، وأن لا يكون العمل الاحتسابي والإعلامي سبباً في انشغالنا عن أنفسنا وتربيتها وتربية غيرنا.

الثالث: إعداد جيل إعلامي قوي يجمع بين العلم الشرعي والصمود على الثوابت الشرعية، والبعد عن الضعف والانهزامية، والاستجابة لأهواء الناس، وبين الوعي الإعلامي والخبرة الإعلامية التي تخاطب الناس، وتؤثر فيهم وتكسبهم.

الرابع: لا يقتصر في مخاطبة الناس ببيان الحكم الشرعي في المنكرات وتحذيرهم منها، بل ينبغي أن يتوجه الخطاب إلى القلوب وتقوية العبودية لله ﷻ فيها والاستسلام لشرعه -سبحانه- والإذعان والقبول له، وتخويفهم من الله ﷻ ومن عذابه، وتقوية محبة الله ﷻ وتعظيمه والخوف

من يوم الحساب والوقوف بين يدي الله -تعالى-، وتقوية واعظ الله في قلب المسلم وخشيته في الغيب والشهادة، لأن الإيمان الحق والرادع القوي عن معصية الله ﷻ هو خوف الله -عز وجل بالغيب ومراقبته في السر والعلن، وإن في هذه الشهوات التي انفتحت في زماننا اليوم بشكل لم يسبق له نظير، بحيث يسهل الحصول عليها بأدنى جهد، بل بغير جهد، حتى أصبحت في متناول اليد والسمع والبصر، إن في هذا ابتلاء من الله ﷻ ليعلم من يخافه بالغيب، كما ابتلى أصحاب محمد ﷺ بعدما حرم قتل الصيد على المحرم بحج أو عمرة بأن ابتلاهم فسهل لهم الصيد تناله أيديهم ورماحهم، وكان الصيد قبل ذلك ينفر منهم بمجرد رؤيتهم من بعيد.

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة:٩٤]. فنجوا من هذا الابتلاء لأنهم يخافون ربهم بالغيب، وكذا الحال في أجهزة الحاسوب والجوال المتاحة اليوم بيد الصغير والكبير، والرجل والمرأة، يحملها في جيبه ويخلو بها في غرفته، وبمجرد فتح موقع من المواقع السيئة يظهر ما يثير الشهوة ويوقع في الرذيلة، فإن لم يقوَّ في قلوب الناس واعظ الله ﷻ والخوف منه بالغيب، فإن أي وسيلة بعد ذلك قليلة الفائدة أو عديمتها.

فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يقول: يا أيها الناس!**

اسلكوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب، قال: ويلك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي الذي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم»[1].

والشاهد في هذا الحديث قوله: (ويلك لا تفتحه)، وأن القائل لذلك الداعي إليه واعظ الله ﷻ في قلب المسلم، فلا عاصم من فتح محارم الله إلا الخوف من الله ﷻ في قلب المسلم.

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٢٢٧) (١/ ٢٣٨)، ورواه أحمد بلفظ مقارب (١٨١٠١)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٤٨).